

دراسات في التاريخ و التراث

أبو القاسم محمد كرّو

كتاب المعارف يصدر عن دار المعارف

كتاب المعارف يصدر عن دار المعارف

أبو القاسم محمّد كرّو

دراسات في التاريخ والتراث



منشورات دار المعارف للطباعة والنشر
سوسة/تونس

العدد المسند من طرف الناشر : 91/312
تم ايداعه بالمكتبة الوطنية في شهر مارس 1991

* * *

تدمك : ISBN ـ 9973 ـ 16 ـ 049 ـ 5

مقدمة

يضم هذا الكتاب مجموعة من الأبحاث والمقالات الي تخصصت أو إتصلت بقضايا تاريخية وتراثية. وارتبطت في معظمها بمواقف أو مناسبات خاصة بالتاريخ أو التراث أو بهما معا . . وينتهي الكتاب بثلاث مقالات تتحدث عن ثلاثة اعلام رواد كانوا بدورهم على علاقة وثيقة بالتاريخ والتراث وهم عبد السلام هارون وعبد الله كنون ومحمد بيرم الخامس.

ومعظم بحوث الكتاب وفصوله القيت محاضرات في مؤتمرات أو ملتقيات ذات علاقة بمحتواها وزمانها. وقد حرصت على بيان ذلك مع كل موضوع، مضيفا اليه مكان وتاريخ النشر الأول في الدوريات.

وقد كان في النية ان تكون هذه الدراسات قسما من كتاب كبير يجمع بين صفحاته أبوابا أربعة تكون موزعة بين الآدب والنقد والتاريخ والتراث . . ولكن المواد التي اختيرت كانت بعددها وصفحاتها أكبر من حجم الحلقة المحدد في هذه السلسلة «كتاب المعارف» فصار من المفيد والضروري توزيع المواد بين كتابين . . يضم كل منهما فصولا متجانسة ذات صلات وثيقة ببعضها وتخصص واضح.

وكنتيجة لذلك ولعملية التوزيع والتبويب المتجانس . . صدر القسم الأول كتابا مستقلا تحت عنوان : **ـ دراسات في الأدب والنقد ـ**

وتعين ان يضم هذا الكتاب القسم الثاني المتصلة فصوله بفحوى وحدود عنوانه : **ـ دراسات في التاريخ والتراث ـ**

وبقيت مع ذلك مجموعة أخرى مماثلة لهذه المجموعة، ولكنها متميزة عنها لأنها تتعلق بعدد من المدن التونسية واعلامها . . وتتناول بالخصوص طائفة من الدراسات والمحاضرات حول تاريخ واعلام مدن وجهات تونسية لم تسلط عليها الاضواء أو يكتب عنها بما يشفي الغليل ـ كما يقال ـ (الكاف وربوعها) و « الاربس » و « قمودة » اي ولاية سيدي بوزيد الآن. و « القصرين » و « قفصة » بالاضافة إلى قضايا ومشاكل بلدانية تتعلق بـ « قلعة سنان » و « فريانة » و « أبة » و « القصرين » و « طبرقة » و « سوسة » و « الدهماني » . .

ولأهمية هذه الدراسات وطولها وتشعبها فقد استبقيت لتنشر في كتاب مستقل ثالث في وقت قريب لاحق.

تونس : (ا. م. ك.)

قضايـــا تاريخيـــة
حول بني هلال

- ابن خلدون والعرب
- الفاطميون دولة استنزاف
- بنو هلال وأوهام المؤرخين
- من دمّر قرطاجنة وقفصة ؟
- تعمير إفريقية وتعريبها.

ابن خلدون والعرب

يشير ابن خلدون في مقدمته وفي تاريخه قضية من أدق واخطر القضايا القومية والعلمية في تاريخ المغرب العربي.

وهي قضية تتعلق أساسا بما ذكره ونعت به العرب من صفات ذميمة وما أكد انهم قاموا به من تدمير للحضارة وتخريب للعمران في جميع أقطار المغرب العربي . . بداية من منتصف القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) وحتى نهاية القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي).

والجانب الأول من هذه القضية نجده مبثوثا في المقدمة حين نعت العرب بصفات مذمومة لا تتشرف بها امة من الأمم.

أما الجانب الثاني فنجده مفصلا في باقي الكتاب أي في تاريخه المطول، حيث اعتبرهم مسؤولين تاريخيا وعمليا عن كل التخريب والدمار الذي أصاب الحضارة والعمران في أقطار المغرب العربي عامة وتونس بوجه خاص.

لقد تصدى للجانب الأول أكثر من باحث ومؤرخ من الثقاة المنصفين الذي أثبتوا بالحقائق العلمية والتاريخية سلامة فكر ابن خلدون ونزاهته وحدود ما يعنيه بكلمة العرب وبالتالي مفهوم الصفات الذميمة التي وصفهم بها. وقد أقام هؤلاء الحجة على ان ابن خلدون انما قصد بتلك الصفات : الأعراب، أي البدو الرحل سواء كانوا عربا أم بربرا أم غيرهما من القبائل الموغلة في الرحلة والبداوة.

وفي طليعة هؤلاء المنصفين لابن خلدون والعرب العلامة الجليل والمربي الكبير رائد الفكر القومي المرحوم ساطع الحصري في كتابه « دراسات عن مقدمة ابن خلدون ».

وفي هذا السياق نفسه ودفاعا عن ابن خلدون والعرب كان كتابي « العرب وابن خلدون » لذلك فانا اعتبر شخصيا هذا الجانب من القضية منتهيا ولا جديد فيه.

أما الجانب الثاني وان كان في أصله نتيجة عملية للجانب الأول فان التسليم به مازال مسيطرا على معظم المؤرخين المعاصرين، إذ اعتبروه حقيقة ثابتة لا مجال للشك فيها فضلا عن نفيها واثبات عكسها . . . واعني بذلك، مرة اخرى، ما ذكره ابن خلدون في تاريخه واطنب في تفصيله وتكراره من ان القبائل العربية التي زحفت، أو قل هاجرت، في منتصف

القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي من مصر إلى تونس وباقي بلاد المغرب قد كانت على حد قوله « كالجراد المنتشر » الـذي أتى على الأخضر واليابس ودمـر الحضـارة والعمران واحدث من الخراب والاضطراب ما قوض البنيان واهلك النبات والشجر والانسان !

واني إذ اتصدى كما تصدى ـ بعض المعاصرين ـ وهم قلة حتى الآن ـ إلى رد هذه الوصمة عن العرب أولا ، وعن هذه القبائل ثانيا، وعن حقائق التاريخ ثالثا . . . فذلك لأن ما قالـه ابن خلدون ومن اعتمـده او تأثـر به أو روج له ليس صحيحا في جملته . . . ولا سند له من وقائع الأحداث. انما هي ظواهـر بارزة انخدع بها ابن خلدون ونصوص سابقة ضللت فكره وقلمه وقادتها إلى الأوهام والأخطاء !

وحتى تكـون هذه القضية واضحـة في التصور التاريخي لدى كافـة القـراء ينبغي ان امهـد لها بلمحتـين خاطفتـين ضروريتـين للاحـاطـة بظروفها وحقيقتها : الأولى عن ابن خلدون، والثـانية عن بداية هذه القضية وأبعـادهـا عنـد المؤرخين المغاربة والأوروبيين.

أ ـ التعريف بابن خلدون :

من المعلوم ان ابن خلدون كما ذكر هو نفسه قد انحدر من سلالة عربية لها امجاد عريضة وعريقة في التاريخ .

وانـــه ينتمي إلى جد اعـــلى هاجـر من حضرمـوت إلى الأندلس في منتصف القرن الرابع الهجري . . . ثم نزح جده الأدنى من اشبيلية إلى تونس في منتصف القـــرن الســابـع الهجري (الثالث عشر الميلادي).

ولهذا يدعى أبو زيد عبد الرحمان بن خلدون الحضرمي - نسبة إلى جده الأعلى خالد الوافد من حضرموت . .

ولد عبد الرحمان في تونس غرة شهر رمضان سنة 732 هـ المـوافق 25/5/332 ميلاديا، وتـوفي يوم 25 رمضان عام 808 هـ المـوافق 15/3/1406 م . . . وبذلك يكون قد عاش أربعـــا وسبعـــين سنـــة . . . تقلب خلالها بين جميع الوظائف والمناصب الادارية والسياسية والقضائية والعلمية. كما طاف وعاش وساح في معظم الوطن العربي مغربا ومشرقا.

فقد قضى أربعا وعشرين سنة من حياته في تونس وستة وعشرين عاما في المغرب الأوسط « الجزائر اليوم » و المغـرب الأقصـى « المملكة المغربية » اليوم والأندلس، وقضى الفترة الأخيرة من حياته ومدتها أربع وعشرون سنة في مصر . . وفي القاهرة بالذات حيث زار خلالها الحجاز للحج وبلاد الشام « فلسـطين وسوريا » وكان في دمشق حين حاصرتها جيوش الفاتح المغولي تيمورلنك وقام ابن خلدون يومئذ باخطر مهمة

في حياته حين تدلى بحبل من أعلى السور ليقابل تيمور لنك ويحاول معه انقاذ المدينة من الدمار المغولي المحدق بها، وكان ابن خلدون عندئذ فوق السبعين من عمره ؟ !.

وهكـذا لم يبق خارجـا عن مسرح حيات سوى العـراق والخليج وجنوب الجزيرة العربية.

ب ـ بداية القضية وأبعادها :

تعود هذه القضية كما هو معروف إلى ما زعمه ابن خلدون في تاريخه من أن العرب قد دمروا الحضارة وخربوا العمران في بلاد المغـرب عامة وفي افريقية، أي تونس، بوجه خاص، ابتداء من منتصف القرن الخامس الهجري وانتهاء بوفاة ابن خلدون سنـة 808 هـ 1406 ميلادية . . . وقـد عممهـا المؤرخـون الغـربيون وسحبـوهـا على باقي التـاريخ العربي بالمغرب حتى نهاية القرن التاسع عشر ؟ ! كما استغلوها أبشع استغـلال . . وبنـوا عليهـا أحكـامـا واراء معادية للعرب، تظهـرهم طوال تاريخهم جماعـات بداثية لا تحسن شيئـا إلا " خريب والنهب ونشر الدمار والفساد في الأرض ؟ .

وبـالمقابل حاول هؤلاء المؤرخون العنصريون ان يظهروا تاريخ الاستعمار الأوروبي للشمال الافريقي قبل الاسلام ـ أي في عهد الرومان والوندال والبيزنطيين ـ وبالطبع في العصور

الحديثة، على يد الفرنسيين والايطاليين والاسبان، منذ القرن التاسع عشر إلى الاستقلال . .

حاولوا أن يظهروا هذا التاريخ الاستعماري الأوروبي في عصوره القديمة والحديثة بمظهر مشرف أخاذ . . مظهر الناشر للحضارة والباني للعمران والمحقق للرخاء والمدنية والازدهار ؟ !

وهم في كل ذلك يحاولون ان يكونوا موضوعيين نزهاء فيستندون في تحليلاتهم ونتائجهم على ابن خلدون أي على القسم المغربي من تاريخه الكبير . .

ومن ابرز هؤلاء . . نذكر بالخصوص المؤرخ العنصري ڤوتيه وجورج مرسي وروجي ادريس والفريد بل وشارل اندري جوليان الفرنسيين، وفريد ريكو اوغسطيني الايطالي .

وجميع هؤلاء يعتبرون ممن يعتمد عليهم ويوثق بهم، لا عند المؤرخين الغربيين فقط بل عند كثير من المؤرخين العرب ومن أبناء المغرب العربي بالذات . ولكي نكون معا في صلب الموضوع ملمين بحقيقته التاريخية، والموضوعية، سأشير بايجاز كبير إلى المراحل الكبرى التالية من تاريخ العرب والاسلام في المغرب العربي :

من المعلوم أن أول ظهور وحضور للعرب المسلمين (في افريقــا ـ افـريقية)، تونس اليوم، قد كان بمقـدم جيش العبادلة السبعة سنة 27 هـ 648 م وقد استطاع هذا الجيش ان يتسرب، في ظروف لم تعرف كلها بعد، يتسرب إلى عمق البـلاد الافريقية ويصل إلى عاصمتها سبيطلة ويخوض غمار حرب سريعة عجيبة انتهت بانتصار الجيش العربي، وبمقتل الحاكم أو الملك البيزنطي جورجيوس، وفتح عاصمته سبيطلة عنوة، واسر ابنته وفرار من بقي حيا من جنوده أو اسرهـم.

ولم يبق العرب في البلاد بعد هذا الانتصار الساحق. بل عادوا ادراجهم إلى مصر

وبعـد عشرين سنـة اخـرى، بدأت طلائع جديدة من الهجومات العربية الاسلامية ترتاد البلاد، وتحقق دائما الفوز والنصر . . ولكنها تعود إلى معسكرها الاقرب ـ هذه المرة ـ إلى طرابلس التي فتحها عمرو بن العاص وتولى رويفع بن ثابت الانصاري أمرها ومنها كان يرتاد جنوب تونس للاستطلاع.

وابتـداء من سنـة 50 للهجـرة 670 م بدأ المـد العربي الحقيقي على يد عقبـة بن نافـع الذي أسس قاعدة ومدينة للاسلام في المغرب وهي مدينة القيروان . . . فدل ذلك على رغبة الفاتحين وتصميمهم التام على البقاء نهائيا في البلاد الجديدة.

وقد مضى النصف الثاني من القرن الأول في صراع عنيف بين العرب الفاتحين، وبين حكام البلاد المستعمرين من بقايا الروم من جهة وبينهم وبين البربر سكان البلاد الأصليين من جهة اخرى، وقد استماتت البربر في مواجهة العرب بعد ان أعانوهم على الروم وأوشكوا أكثر من مرة ان يبيدوا العرب عن آخرهم، وهزموهم مرات عديدة، خاصة بقيادة زعيم بربري عنيد هو كسيلة وزعيمة قوية ذات سيطرة روحية غريبة على اتباعها وهي المعروفة في التاريخ الاسلامي باسم الكاهنة.

ومع ذلك، فان القرن الأول الهجري لم ينته الا بتسجيل حدثين عظيمين كان لهما أبعد الأثر فيما بعد، سواء في انتشار الاسلام أو في ازدهار حضارته وثقافته في ربوع الجناح الغربي للعروبة والاسلام.

الحدث الأول تمثل في السيطرة شبه التامة على كامل أقطار المغرب، اي ليبيا وتونس الجزائر والمغرب الأقصى.

الحدث الثاني، كان فتح الأندلس سنة 92 هـ 710 على يد جيش اسلامي يقوده طارق بن زياد، وهو بربري من قبيلة نفـزاوة . . وفي هذا وحـده دلالـة كبرى على دور العنصر البربري، لا في نشر الاسلام ودعم قوته وحماية نفوذه فقط بل وفي نشر لغة العرب ودعم ثقافتهم والعمل على انتشارها وازدهارها.

وقد مضى القرن الثاني للهجرة في فتن وحروب داخلية، كان أكثرها بين العرب الفاتحين أنفسهم! ! حيث كان الصراع على الحكم وغنائمه قويا جدا بينهم، يعززه تنافس قبلي وعائلي واضح!.

وهدأت الأمور نسبيا في نهاية القرن الثاني بظهور بني الأغلب سنة 184 هـ وقد أولاهم الخليفة هارون الرشيد أمر بلاد المغرب، بعد أن أثبت ابراهيم بن الأغلب حزمه ومقدرته على توحيد البلاد لصالح العباسيين.

الفاطميون دولة استنزاف

حكم الأغالبة معظم بلاد المغرب طوال قرن كامل، وظهرت في عهدهم حضارة الاسلام الأولى. كما ازدهرت البلاد اقتصاديا وثقافيا وعمرانيا. ورغم فساد بعض الأمراء والولاة الأغالبة، وظهور فتن الخوارج وقيام دويلات صغيرة في أطراف البلاد البعيدة كالادارسة والرستميين، رغم ذلك كله فان البلاد ظلت في جملتها امنة وتابعة لبني العباس اسميا وسياسيا فقط.

وفي سنة 296 هـ (809 م) ظهر الفاطميون بعد ان قضوا تماما على الأغالبة وكل الدويلات المنفصلة، واستطاع الفاطميون فعلا ان يوحدوا المغرب العربي من المحيط الأطلسي إلى حدود مصر الغربية. ولم يبق خارجا عن نفوذهم سوى مصر الأخشيدية والأندلس الأموية.

وبالطبع كانت صقلية وسردينية ومالطة وبعض الجزر الأخرى في المتوسط تابعة لهم كما كانت للأغالبة من قبل.

غير ان الفاطميين لم يكونوا قط يريدون أو يفكرون في البقاء بالمغرب، بل كانت عيونهم منذ البداية مشرئبة نحو المشرق، وكان هدفهم الأسمى والوحيد هو القضاء على العباسيين وجعل بغداد عاصمة لهم.

وهكذا لم تمض ستون سنة حتى كان القائد جوهر يزحف على مصر ويستـولي عليهـا ويؤسس بها عاصمـة جديدة، بجيش مغـربي عظيم وعـدد ضخم من العلماء والمهنـدسين المغاربة. فكانت القاهرة المعزية عاصمة الفاطميين الجديدة والثانيه بعد المهدية.

وبتمام ذلك انتقل المعز الفاطمي من القيروان سنة 361 هـ (971 م) إلى عاصمته الجديدة. ولكن انتقاله ـ كان في الواقع ـ أول كارثة كبرى لحقت الحضارة والثقافة والاقتصاد في المغرب منذ استقرار الاسلام به، وسنعود لبيان ذلك بعد قليل.

وعندما انتقل المعز إلى مصر ليستقر بها نهائيا، أو لتكون محطه جديدة في طريقه إلى بغداد، اختار أميرا بربريا ليحكم كامل بلاد المغرب باسمه ونيابة عنه، وهذا الأمير هو بلكين بن زيري من قبيلة صنهاجة البربرية التي كان لها ـ مثل كتامة ـ الفصـل الأكـبر والدائم على قيام الدولة الفاطمية، وعلى حمايتهـا من أعـدائهـا، وخاصة ثورة ابي يزيد البربري التي كادت تقضي على الفاطميين سنة 336 ـ هـ (947 م) وعلى جميع مظاهر العمران في افريقية.

كما كانت كتامة البربرية هي التي تولت في الواقع فتح مصر وبناء القاهرة وحماية المعز حتى استقراره بها، وهي التي بسطت نفوذ الفاطميين على بلاد الشام واليمن والحجاز بعد ذلك. فكأنها مثلت المد الاسلامي الجديد العائد ـ هذه المرة ـ إلى المشرق.

وقد استمر حكم بني زيري الصنهاجي للمغرب في جو غير مستقر حتى سنة 440 هـ. وقد انشطرت العائلة إلى دولتين : الأولى ـ وهي الأصلية ـ في القيروان وحاكمها الأمير المعز بن باديس والأخرى في الجزائر الغربية ويحكمها أمير من أبناء حماد الصنهاجي أيضا عم المعز.

وكانت الأولى تابعة للفاطميين في مصر بينما كانت الثانية تعلن ولاءها لبني العباس في بغداد امعانا في الانشقاق عن الأولى.

وكان المعز بن باديس شيعيا في مذهبه وسياسته، محافظا على ولائه التام للفاطميين، فالخطبة لهم في الجوامع وشعاره وعلمه هو شعارهم وعلمهم، وكمثله كان معظم رجال دولته.

لكن الأغلبية الساحقة من الشعب كانت مالكية. وكانت كلها تقريبا شديدة العداوة له وللفاطيين.

وكان فقهاء المالكية هم الحاكمون الحقيقيون في كل المدن والقرى بما في ذلك عاصمته القيروان نفسها.

وحدثت هزات اجتماعية كثيرة ومذابح شنيعة ضد بقايا الشيعة جعلت المعز بن باديس يدرك الخطر الشعبي الداهم عليه وعلى عائلته ان هو بقي على ولائه للفاطميين. فبادر من فوره إلى اعتناق المذهب المالكي والتحول عن المذهب الفاطمي، واعلن في موكب رسمي انفصاله التام عن القاهرة الفاطمية. سياسيا ومذهبيا. وخطب لبني العباس ورفع شعارهم وعلمهم. وكان ذلك سنة 440 هـ(1048 م) في ارجح الروايات.

فلما علم الفاطميون بذلك، ولم يكونوا على استعداد كاف للانتقام عسكريا من المعز . . . قرروا القضاء عليه بطريقة اخرى ؟ بان فتحوا الطريق في صعيد مصر أمام جحافل من القبائل العربية كانت محجوزة هناك بنهر النيل، يقدر عددها بين 300 ألف ونصف مليون نسمة. وشجعوها على الفتك بالمعز وتدمير بلاده.

وهكذا تدفقت هذه القبائل على دفعات متتالية باتجاه افريقية، كانت البداية، على ما يقال، سنة 443 هـ وبعد ست سنوات فقط كان المعز بن باديس الصنهاجي قد فقد

عاصمتـه القـيروان ومعـظم اجـزاء مملكته وأصبح محاصرا في المهدية المدينة الوحيدة التي بقيت له.

ولم ينج ابن عمه في قلعته، كامير لدولة الحماديين بالجزائر، الا بقطع ولائه لبني العباس، واعلان الولاء للفاطميين، لكن ذلك إلى حين.

وقد عرفت هذه الهجمة العربية او قل الاعرابية، تاريخيا باسم كارثة الاعراب من بني هلال وسليم ويختصرها اكثرهم باسم الكارثة العربية أو الهلالية ؟ !

وعليهـا اقـام المؤرخون الفرنسيون « مناحة كبرى » على مصـير البلاد والعباد ؟ وخاصة ما زُعم من تدمير للحضارة وخـراب للعمـران . . تلك الحضارة وذلك العمران اللذان شيدهمـا الـرومـان والبيزنـطيون قبل الاسلام. فجاء هؤلاء (الهمج المتوحشون) : على حد تعبير بعضهم - فحولوا كل شيء إلى خراب ؟ وليس ذلك فقط، فقد زعموا أيضا بان هذه القبائل قد ظلت تدمر وتخرب، وتصول وتجول من برقة على حدود مصر الغـــربية إلى المحيط الأطلسي . . . ولم يتـوقف التخريب إلا مع ظهور طلائع الرحمة والنجدة الأوروبية على يد الاستعمار الحديث حيث تم انقاذ الجزائر باحتلال فرنسا لها عام 1830 . وتونس عام 1881 ثم جاء دور المغرب الأقصى

فاقتسمتـه اسبانيا وفرنسا عام 1913 . اما ليبيا فكانت من نصيب ايطاليا منذ 1911 ؟

وهكـذا عادت الحضـارة الأوروبية إلى الشمال الافريقي لتنشر فيه من جديد العمران والأزدهار بدافع انساني محض، ونخوة لاتينية لا نظير لها ! !.

وخـلال ذلـك تصـدى المؤرخـون الاستعـماريون لتبرير الاحتلال الغربي، وللمقارنة بين حالة البلاد في ظل الاسلام والعرب. وحالتها في ظل المسيحية والاستيطان اللاتيني ؟ !

واغـرب من ذلـك انهم يستندون في مزاعمهم إلى مؤرخين مغاربة، وبالذات إلى ابن خلدون، باعتباره اكبر مؤرخ لتلك المرحلة. فترجموا المقدمة والاجزاء المتعلقة بتاريخ الاسلام في بلاد المغرب.

فماذا قال ابن خلدون عن هذه القبائل العربية الزاحفة في منتصف القـرن الخـامس الهجـري وبـين مجيئها ومولد ابن خلدون ثلاثـة قرون كاملة . . . حدثت فيهـا بالخصـوص الأحـداث الكـبرى التـالية : وهي احـداث بدون معرفتها ومعـرفة نتائجها، يكون فهم الموضوع ناقصا وتكون نتائجه واحكامنا مبتورة ومعكوسة :

أولا ـ ظهرت دولة المرابطين في المغرب الأقصى وهي دولة بربرية صحراوية.

ثانيا : انقسمت دولة بني زيري الصنهاجية على نفسها إلى دولتين، ثم إلى دويلات في المدن زاد عددها عن العشرين ؟

ثالثا : سقطت جزيرة صقلية الاسلامية سنة 484 هـ (1091 م) تحت حكم النصارى النورمان وتبعتها أو سبقتها الجزر الأخرى في المتوسط كمالطة وكريت وسردينية وكورسيكا . . . وكانت جميعها ومنذ القرن العاشر (الرابع الهجري) منفصلة عن الوطن الأم في القيروان، وتعاني من الفتن والانقسامات بين سكانها المسلمين، شأنها في ذلك شأن الأندلس.

رابعا : انهار الاسطول العربي المغربي منذ رحيل الفاطميين إلى مصر سنة 361 هـ (971 م) وباتت لذلك سواحل المغرب العربي ومدنه مفتوحة للغزاة. وفي نفس الوقت ـ تقريبا ـ كان المشرق العربي يعاني نفس المحن، محن الانقسام والفتن الأهلية، ويجابه وحيدا الغزو الأوروبي الصليبي حيث سقطت القدس وفلسطين ومعظم المدن الساحلية في لبنان وسوريا.

خامسا : بدأت الحملات الصليبية المسعورة على سواحل المغرب، فسقطت مدنه وجزره الكبرى تحت حكم النورمان ما بين سنة 515 هـ (1121 م) و543 هـ (1148 م).

وهكذا تم لهم احتلال معظم المدن على الشريط الساحلي من الجزائر العاصمة إلى طرابلس الغرب، وهو ساحل يمتد مسافة الفي كيلو متر تقريبا.

وأخيرا سقطت المهدية أكبر عاصمة بحرية وأكثر المدن حماية وتحصينا.

سادسا : ظهر الموحدون في صحراء المغرب بزعامة المهدي بن تومرت، وبقيادة عبد المؤمن بن علي فتهاوت امامه دولة المرابطين ثم باقي الدويلات المتناثرة الأخرى، ولأول مرة في تاريخ المغرب تمت فعلا وحدته السياسية والترابية بزعامة بربرية، واستطاع عبد المؤمن ان يحقق ما عجز عنه يوغرطة عدو الرومان الالد، وان يحرر المدن والسواحل المغربية من النصارى الصليبيين ومن النصارى المغاربة المتعاونين معهم.

وكان تحريره للمهدية، كآخر معقل عند النورمان سنة الاخماس 555 هـ (1160 م) وهكذا سبق انتصار عبد المؤمن إنتصار صلاح الدين على الصليبيين في القدس بنحو ثلاثين سنة.

واستمر الموحدون يحكمون المغرب مباشرة، ثم عينوا ولاة نيابة عنهم، فكان ذلك سببا لانقسام البلاد مرة أخرى تحت حكم ثلاث اسر بربرية، هي بنو حفص في تونس وليبيا وشرق الجزائر، وبنو عبد الواد في غرب الجزائر، وبنو مرين في أقصى المغرب.

وكانت هذه هي الحالة السياسية عندما ولد عبد الرحمان ابن خلدون سنة 732 هـ (1332 م) وخلال بقية الفترة التي عاشها ابن خلدون من القرن الثامن، وكذلك القرون الأربعة السابقة، كانت الفتن الداخلية والحروب مع الصليبيين، متواصلة وتكاد لاتنقطع، الأمر الذي انهك جميع القوى المحلية واستنزف الطاقة البشرية، وأدى بالتالي إلى تدهور عمراني واقتصادي كبيرين.

وكانت القبائل بوصفها الأغلبية البشرية الساكنة في المنطقة تقوم بدور فعال ورئيسي في كل ذلك، وكانت تنتقل بولائها ومناصرتها من هذا الأمير أو الثائر إلى ذلك الأمير أو الثائر الجديد، بحسب الظروف والمصلحة المادية.

وكان ابن خلدون، الشاقب النظر، القوي الملاحظة، شاهدا وكاتبا لتاريخ لم يتفرج عليه أو يعاصره فقط بل ساهم بدور فعال وبارز في احداثه وتطوراته، كما ساهم آخرون من أفراد عائلته بدور مماثل، كأخيه يحي وأبيه وجده.

وليس من شك في ان هذه المعاصرة والمشاهدة والمشاركة لها قيمتها الكبرى كمصدر أساسي عن الأحداث كما وصفها وحللها. ولكنه ليس معصوما من الخطأ والغلط ان في الوصف أو الملاحظة أو التحليل.

وهذا هو لب موضوعنا من هذه القضية.

بنو هلال وأوهام المؤرخين

من المعلوم لدى كافة المعنيين بتاريخ الأمة العربية عامة، والمغرب العربي بوجه خاص.

ان المـد العربي الاسلامي، من المشرق إلى المغرب، قد كان على فترتين متباعدتين جدا :

الأولـى :
مع طلائـع الفتح المبكر سنة 27 هـ وحتى نهاية القرن الأول الهجري.
الثانية :
من منتصف القرن الخامس إلى نهايته تقريبا.
ففي الفـترة الأولى كان المد العربي ضعيف التأثير عرقيا وبشريا، وانحصر دور العـرب الفاتحين في نشر الاسلام في معظم ربوع المغرب، وبقي التأثير البشري واللغوي مركزيا ويكاد يقتصر على المدن وما حولها من القرى، ولذلك لم يصبح العرب ولا المعربون اغلبية بين السكان.

ويكفي دليلا على ذلـك ان جيش الفتـح الاسـلامي للأندلس كان مكونا من اثنتي عشر ألف جندي بينهم 500 جندي فقط من العرب، والبقية كانوا من البربر بمن فيهم القائد الشهير طارق بن زياد.

أما الفترة الثانية، فكانت هي المد العربي الحقيقي خلال النصف الثاني من القرن الخامس الهجري وذلك مع قبائل بني هلال وسُليم التي غيرت تماما موازين القوى البشرية وجميع المعطيات الدينية واللغوية والتاريخية.

وهذه القبائل هي التي يعنينا الآن أمرها تاريخيا وقوميا وعسكريا.

فلقد اتفق المؤرخون العرب القدامى أو كادوا وكذلك المؤرخون الغربيون، اتفق أولئك وهؤلاء على ان هذه القبائل هي التي خربت البلاد المغربية ودمرت حضارتها المستمرة من عهد الرومان؟

والمعاصرون منهم بالخصوص، يعتمدون بالدرجة الأولى في تحليلاتهم ونتائج أبحاثهم على إبن خلدون اعتمادا يكاد يكون كليا.

وفعلا، فان هذا العلامة الجليل والمفكر العالمي، قد خصص مئات الصفحات للحديث عن هذه القبائل من جميع الجوانب، فتحدث عن أصولها وفروعها وتاريخ هجراتها ونزوحها من المشرق إلى المغرب، وعلى الأخص عن اثر أعمالها وأفعالها منذ دخولها بلاد المغرب منتصف القرن الخامس إلى نهاية القرن الثامن الهجريين، حيث عاصرها هو نفسه

واجتمع بشيوخها وأمرائها، وروى عنهم اخبارهم وانسابهم واشعارهم ولهجاتهم . . الأمر الذي لم يقم به أي مؤرخ آخر، لا في المغرب ولا في المشرق.

كذلك شارك شخصيا الأمراء وزعماء القبائل أو الدويلات المغربية في عديد الأمور والحروب المحلية، حتى لقد تعرض مرة إلى احدى الغارات التي سلبته جميع ما كان معه بما في ذلك ما عليه من الثياب ؟ !

وكان في تجواله في جميع أرجاء المغرب والأندلس يشاهد ويعاين الخراب والفساد اللذين تقوم بهما بعض القبائل، فوصف ما رآه وحلله واستخلص منه فلسفته وعلمه الجديد القائمين على حتمية تاريخية أبدية، مبعثها الصحراء وقوامها الصراع المستمر بين الحضر والبدو، أي بين الحضاره والبداوة !

وفي مجرى وصفه لما حدث من هذه القبائل طوال القرون الثلاثة التي سبقته . . . نعت ـ وبدون تردد ـ اعمالهم وكثرة عددهم بانهم مفسدون مخربون وانهم « كالجراد المنتشر » على حد قوله !

سأقتصر ـ هنا ـ على فقرات قليلة تغنينا عن كثرة الاستشهاد، ونضيف إليها شاهدين من مصادر أجنبية تأثرت به واستغلت نصوصه استغلالا معاديا للعرب.

هذا أولا بعض ما قاله ابن خلدون عن القبائل العربية :

. . . « فطمعت العرب إذّاك واجازوا النيل إلى برقة ونزلوا بها، وافتتحوا أمصارها واستباحوها، وكتبوا لأخوانهم شرقي النيل يرغبونهم في البلاد فاجازوا إليهم . . . فحصل لسُليم الشرق ولهلال الغرب، وخربوا المدينة الحمرءا، وأجدابية وأسمرا وسرت . (1).

وأقامت هيب من سليم واحلافها، رواحة وناصرة وغمرة، بارض برقة، وسارت قبائل دياب وعوف وزغب وجميع بطون هلال إلى افريقية كالجراد المنتشر، لا يمرون بشيء الا اتوا عليه حتى وصلوا إلى افريقية سنة ثلاث وأربعين واربعمائة » .

وبعد تفاصيل كثيرة يصل إلى سقوط القيروان بايدي هؤلاء الأعراب من بني هلال فيقول :

« ثم جاء العرب فدخلوا البلد ـ أي القيروان بعد فرار السلطان المعز منها ـ واستباحوه، واكتسحوا المكاسب وخربوا المباني وعاثوا في محاسنها، وطمسوا معالمها، واستصفوا ما كان لآل بُلكين في قصورها، وشملوا بالعيث والنهب سائر من فيها وتفرق أهلها في الأقطار، فعظمت الرزية وانتشر الداء واعضل الخطب » .

« واضطرب امر افريقية وخرب عمرانها وفسدت سابلتها . . .

« . . . وهلكت الضواحي والقرى بافساد العرب وعيثهم . . .

« . . . وفر أهل القيروان إلى تونس وسوسة، وعم النهب والعيث في البلاد . . . ».

ويواصل ابن خلدون الحديث مفصلا عما قامت به هذه القبائل بافريقية وبقية بلاد المغرب من حروب وفتن منذ دخولها في منتصف القرن الخامس إلى عصره بغاية الاحاطة والشمول مكانا وزمانا واشخاصا.

وفي كل ذلك لا يبرز شيئا أكثر مما يبرز الدور التخريبي الذي قامت به هذه القبائل. ويمكننا ان نعتبر أن احكامه على الأعراب والبدو التي استخلصها من هذه الوقائع هي التي فلسفها وبسط نظرياته حولها في باب كامل من مقدمته الشهيرة وهو الباب المعنون « بالعمران البدوي » والذي تضمن فيما تضمن فصولا عنونها كما يلي :

- فصل في ان العرب اذا تغلبوا على أوطان اسرع إليها الخراب ؟
- فصل في ان العرب لا يستولون الا على البسائط ؟
- فصل في ان العرب ابعد الأمم عن سياسة الملك ؟

ورغم ان ابن خلدون في كل حديثه عن العرب إنما يقصد الأعـراب اي البـدو فقط، ورغم انـه لم يخصّهم وحـدهم بأحكامه وآرائه، فان المؤرخين المعاصرين من عرب وأجانب قد ضيقوا واسعه واعتبروا احكامه خاصة بالعرب ؟

وبخصـوص قضية التخريب للعمران والحضارة بالذات نجـد ابن خلدون يذكـر اعـمال القبائل البربرية المتحالفة. معهم أو المستقلة بأفعـالها عنهم، لكن معـظم المعاصرين يغمضون عيونهم عن هذه الحقيقة وكأن ابن خلدون لم يقل مثلا النص التالي :

« واستباحت العرب وزناتة خزائن الناصر (2) ومضاربه وقتـل اخوه القاسم ونجا هو إلى قسنطينة ورياح في اتباعه. ثم لحق بالقلعـة فنـازلـوها وخربوا جنباتها، واحبطوا عروشها، وعـاجـوا على ما هنـالـك من الأمصـار مثـل طبنة والمسيلة فخـربـوها، وازعجوا ساكنيها، وعطفوا على المنازل والقرى والضياع والمـدن فتركوها قاعا صفصفا اقفر من بلاد الجن، وأوحش من جوف العير . . وغوروا المياه واحتطبوا الشجر، واظهروا في الأرض الفساد . . وهجر ملوك افريقية والمغرب، من صنهاجة، وولاة اعمالهم في الأمصار ..» ؟

إن قوله في هذا النص « واستباحت العرب وزناتة خزائن الناصر الخ » واضح في انه لا يعني به العرب فقط ولكن أيضا

احـدى أكبر القبائل البربرية المعروفة باسم (زناتة) الا ان روجي ادريس وأوغسـطيني مثلا قد اعتبرا الأمر خاصا بالعـرب، بل ان اوغسطيني قـد تغنى بامجاد الرومان وحضارتهم التي خربها هؤلاء العرب، قائلا :

« وبنو هلال وبنو سليم قوم معروفون بميلهم إلى الحرب والغزو . . .

« . . . وقـد تغلغلت هذه المجموعات الكبيرة نحو الغرب، في شكل موجات متعاقبة على البلدان التي جعلتها السلم الرومانية مزدهرة ومتمدنة، وقد نقلوا على قول المؤرخين العرب (يعني ابن خلدون) ـ نقلوا ـ أي العرب ـ الدمار الكامل . . . إليها ». ؟

أما روجي ادريس فيعتبر قدوم هذه القبائل كارثة كبرى على الحضارة والعمران بافريقية ؟

وكذلك كانت آراء المؤرخين الآخرين، واشهرهم شارل انـدري جوليان، وان اعـترف في الطبعة الأخيرة من تاريخه لشمال افريقيا بدور ايجابي لهذه القبائل بل وحتى بمساهمات عمرانية لها.

وهكذا اصبح تاريخ ابن خلدون الخاص بالمغرب العربي، مثل مقدمته مجالا فسيحا للنيل من العرب واعتبارهم مسؤولين

عن الخـراب والـدمار اللذين لحقا بالمدن والحضارة المغربية وحجتهـم الأولـــى فـي كـل ذلـك هي أقــوال ابـن خلـــدون فـي المجلدين الخامس والسادس اللذين خص بهما تاريخ المغرب العربي طوال قرون الاسلام الثمانية الأولى.

هوامـــش

1) كلها مدن في شرق ليبيا على ساحل البحر.

2) هو امير دولة الحماديين من بني زيري . . . المنشق على دولة اعمامه بالقيروان.

من دمّر قرطاجنّة وقفصة ؟ !

هل حقيقة ان العرب (أي أعراب بني هلال وبني سُليم) النازحين للمغرب في القرن الخامس هم المسؤولون عن هذا الـدمار وذاك الخراب ؟ وإذا لم يكن هذا صحيحا فمن هو المسؤول الحقيقي عن هذا الدمار والخراب ؟

ولماذا اذن وقع في هذا الغلط الشنيع مؤرخ ومفكر عظيم مثل ابن خلدون ؟

أولا : يجب المبـادرة إلى القول بأن المؤرخين المعاصرين يتعمدون الاساءة إلى العرب كافة، وإلى ابن خلدون كمؤرخ حين يفسرون كلمة العرب في تاريخه، كما فسروها في مقدمته بانها تعني الأمة بكاملها والجنس العربي كافة ؟

فمن كانت لديه مسكـة من نزاهـة عقلية وعلمية يدرك بداهة ان ابن خلدون في كل استعمالاته لكلمة العرب، لا يعني بها الا البـدو أي الأعراب، بل اكثر من ذلك هو لا يعني بها الا صنفـا معينا من الأعراب، وهم الأشد بداوة، والذين يحترفون الترحال والغزو بوجه خاص.

أما العرب الباقون فهم عنده حضر وأهل أمصار فالخلط هنا لا يدل عن صدق في النية ولا نزاهة في الحكم.

ثانيا : ان ابن خلدون وقع فعلا في خطأين كبيرين ولكنه لم يكن مع ذلك متحاملا على العرب ولا متهجما عليهم :

الخطـأ الأول

تعميمه في اخباره ووصفه للخراب والدمار الذي شاهده وكأنه حدث كله من كافة القبائل العربية والبربرية، في حين ان الكثـير من هذه القبائل وخاصة منها العربية، قد قامت بدور مغاير تماما لما وصفها به، وكانت لها مواقف بطولية مشرفة في الـدفـاع عن المدن والعمران ورد الغارات الصليبية على السواحل التونسية، كما سيأتي.

الخطأ الثانـي

ان ابن خلدون اعتبر القبائل - عربية وبربرية - مسؤولة وحـدهـا عن كل الخراب والدمار الذي لاحظه شخصيا في أيامـه، والذي ذكرته مصادر سابقة عنه، فاعتبره جميعا من صنع القبائل العربية النازحة في القرن الخامس وجعل بعض

القبائل البربرية شريكة لها، في حين ان الحقيقة عكس ذلك تماما.

فأكثر من نصف المدن والقرى المخربة في عهده لم يكن من تخريب العرب، ولا حتى من تخريب البربر، بل هو من تخريب الاستعمار السابق للاسلام على يد الرومان والوندال والبيزنطيين. وما اكتنف عهودهم من فتن وحروب فيما بينهم من جهة وفيما بينهم وبين البربر من جهة أخرى.

ولا يعني هذا ان الاعراب من بني هلال وسليم لم يخربوا ولكن يعني ذلك، وبالتحديد، ان مسؤوليتهم محدودة جدا وتكاد لا تتجاوز العشرة بالمائة مما أصاب الحضارة والعمران من دمار شامل وخراب ما حق في تونس والمغرب كله طوال الفي سنة على الأقل.

وليس بدعا في الحروب أو الفتن ان يحدث فيها النهب والتخريب، سواء أكانت حروبا داخلية اهلية أو خارجية عدوانية، انما البدعة ان يعتبر مؤرخ أو باحث أمة من الأمم أو قبيلة من القبائل هي وحدها التي تقوم بالنهب أو التخريب في حروبها دون سائر الأمم والقبائل الأخرى. وليست نتائج الحرب العالمية الثانية في أوروبا وهيروشيما وشمال افريقية ببعيدة أو خافية على أحد!.

وإذن، فاننا نستطيع ان نعلن وعلى يقين تام :

أولا : ان ابن خلدون لم يقصد أبدا تلك النتائج المهولة التي ألصقها المؤرخون المعاصرون بالعرب عامة وبني هلال خاصة، وزعمهم بانهم قد دمروا الحضارة بالمغرب العربي.

ثانيا : ان ابن خلدون قد وقع فعلا في خطأ كبير حين اعتبر القبائل العربية مسؤولة عن الخراب الذي شاهده في المغرب . . . غير اننا نؤكد ان ابن خلدون معذور في اخطائه وان كان غير معذور في تحليله وتعميمه للأحداث والمسؤولية :

فأولا : لقد هاله فعلا ما شاهده من خراب جسيم، وتدمير يكاد يكون شاملا لمئات المدن والقرى في جميع انحاء المغرب العربي.

ثانيا : شاهد بعينيه بعض التخريب الذي قامت به بعض القبائل في عصره فظن ان كل الدمار هو من صنع تلك القبائل نفسها، فاعتبرها وحدها المسؤولة عن جميع الدمار والخراب.

ثالثا : وجد المصادر القديمة من مؤرخين وجغرافيين تتحدث عن العمران والازدهار وكثافة الغابات وظلال الاشجار من طنجة إلى طرابلس، وهذه المصادر تقف به زمنا عند القرن الخامس بينما المصادر الموالية من القرن السادس تتحدث عن الفتن والحروب القبلية وفي نفس الوقت العيث

والنهب اللذين قامت بهما هذه القبـائـل، والقبـائل العربية بالذات (1).

رابعا : النصوص الأدبية المعاصرة لهذه القبائل من القرن الخـامس إلى السـابـع تكـاد تؤكـد ما ذهب إليه ابن خلدون . . . وفي طليعة هذه النصوص قصائد كثيرة مازالت موجودة إلى اليوم من كبار شعراء القيروان في القرن الخامس، مثل قصائد ابن رشيق صاحب العمدة، وابن شرف صاحب رسـائـل الانتقـاد، والحصري ابي الحسن صاحب « يا ليل الصب متى غده أقيام الساعة موعده » (2).

خامســا : لم يطلع ابن خلدون ولا غيره من المؤرخــين العرب على كتب التاريخ السابقة للاسلام والمتعلقة بافريقية، استثنـاء كتاب واحد (3) ومن هنا ندرك كيف جعلت هذه لعوامل وغيرها ابن خلدون ينساق دون تمحيص إلى التعميم القاء المسؤولية على القبائل، وخاصة منها العربية وبالذات بائل بني هلال.

وهكذا أصبح واضحا تماما ان ما ذهب إليه ابن خلدون من اتهـام تلك القبـائل بتدمير الحضارة والعمران، وجعلها وحدها المسؤولة عن ذلك ليس صحيحا في جملته، وان كان صحيحا في بعض ما عاصره وشاهده.

كما اتضح أيضا ان جميع المؤرخين الذين اعتمدوا ابن خلدون وزادوا عليه من أجانب ومسلمين قد أخطأوا هم أيضا، وان بينهم مضللين متعمدين.

ولئن لم يصبح هذا التفسير الجديد مذهبا سائدا عند الجميع فانه الوحيد الذي يقوم على معطيات تاريخية وعلمية، معززة كلها بما قام به علماء الأثار من حفريات في بقايا المدن القديمة بتونس والجزائر والمغرب (٤).

والآن وقد عرفنا الحقيقة عن هذه القبائل فمن هو المسؤول الحقيقي عن دمار المدنية وخراب العمران بالمغرب العربي ؟

لاشك في ان هذه ليست هي التهمة الوحيدة التي الصقت بالعرب خطأ أو عمدا، فهناك مثلا تهمة حرق مكتبة الاسكندرية على يد العرب عند فتح هذه المدينة بقيادة عمرو ابن العاص. وقد أصبح الآن معلوما ومؤكدا ان العرب أبرياء من ذلك.

أما دمار المدن في المغرب. فان المراجعة الدقيقة وتوفر عناصر جديدة لدى الباحثين، قد جعلت القول بان العرب هم المسؤولون انما هو مجرد أسطورة أو خرافة على حد قول السيد بونصى.

فالدمار كان قائما قبل مجيء العرب لا في القرن الخامس الهجري فقط بل قبل الفتح أيضا ولم تزده الأحداث على يد غير العرب الا انتشارا واكتساحا. يؤكد ذلك ان الدول العربية التي حكمت المغرب كانت قليلة العدد بالقياس إلى الدول البربرية أو الغزاة الأجانب وهؤلاء الأخيرون كانوا هم المسؤولون الحقيقيون عن الدمار والخراب المشاهد إلى اليوم.

وعلى سبيل المثال سأذكر لكم المدن التالية : قفصة، قرطاجنة، الأربس، القيروان :

قرطاجنة

اتهم حسان بن نعمان القائد العربي بتخريبها في نهاية القرن الأول وقد ثبت أنه لم يفعل اكثر من هدم ثلمات من سورها بدليل انه هو نفسه اسكن بها ألف عائلة قبطية استقدمها من مصر لتتولى بناء السفن في دار الصناعة التي احدثها بمرسى رادس المحاذي لها (5).

أما الهدم شبه الكامل فكان على يد جيش الثائر البربري مخلد بن كيداد سنة 334 ـ 945 أي قبل قرن كامن من قدوم القبائل العربية وتم تدمير. بقاياها على يد السلطان الحفصي المستنصر بالله، وهو بربري من هنتاتة اثر استيلاء لويس

التاسع عليها في حملته الصليبية السابعة على تونس منتصف القرن السابع الهجري وقد بقيت خرابا إلى اليوم (٥). فلماذا يتهمون العرب بخرابها وهم أبرياء تماما من ذلك ؟ ثم لماذا لا يتحدثون عن الدمار الماحق والاحراق الكامل لهذه المدينة نفسها مع إبادة تامة لجميع سكانها البربر والقرطاجنيين على يد الجيش الروماني الهمجي سنة 146 ق. م. ام ان العرب هم الذين عليهم وحدهم ودائما ان يتحملوا جريمة سواهم، كما يتحملونها اليوم في فلسطين ؟

قفصــة

لنتحدث عن قفصة ـ مسقط رأسي بالذات ـ هذه المدينة العريقة في الحضارة والقدم، والتي تنسب إليها أعرق وأولى الحضارات الافريقية قبل ثمانية الاف عام . . . والتي كانت احدى اجمل واعظم المدن الحصينة التي ناصرت وصمدت مع الملك النوميدي البربري يوغرطة العظيم الذي ثار على الاستعمار الروماني كي يحرر بلاد المغرب ويوحدها. ماذا جرى لها من أجل مناصرتها للحق، ودفاعها عن الشرف الوطني ؟! لقد اقتحمها جيش القائد الروماني ماريوس سنة 107 ق. م. وهدمها عن اخرها وأباد جميع سكانها واحرق غاباتها الجميلة لا احد اليوم وطوال الفي سنة يتحدث عن هذه الجريمة.

وتستعيد قفصة حياتها ويعود إليها الفارون من أبنائها والمهاجرون الجدد لتصبح في القرن الرابع الميلادي وفي عهد الامبراطور جوستينيان احدى المدن الحصينة والمزدهرة في نوميديا ولكن أميرا بربريا هو أبو يعقوب يوسف المنصور الخليفة الموحدي يأتي عليها مرة ثانية سنة 583 هـ 1187 م. والذين عمروها بعد هذا التاريخ كانوا هم العرب من بني هلال (7).

الأربس :

أما الأربس (8) بشمال البلاد التونسية، ولاية الكاف، فإن جيش الدعوة الفاطمية، وكله من قبيلة كتامة البربرية، قد أتى عليها وعلى أهلها سنة 908/296 خلال المواجهة النهائية مع بني الأغلب. وحدث الأمر نفسه بعد أربعين سنة على يد صاحب الحمار، مخلد بن كيداد عند قيام ثورته على الفاطميين. فقد اقتحمتها جموعه المخربة وأبادت جميع سكان المدينة . . . وسفكت دماء ثلاثين ألف من الفارين من أطفالها ونسائها في الجامع وحده ؟ ولم يعمر المدينة ويمد في عمرها خمسة قرون لاحقة الا بنو هلال !

القيروان :

ونتحول إلى القيروان ـ عاصمة بني زيري ـ لنقول : بأن العرب، أي اعراب القرن الخامس الهجري، لم يفعلوا كل ما

نسب إليهم. وهم ليسوا من سُليم بل من بني هلال الذين كانوا حلفاء للمعز بن باديس، ذلك الأمير المائع المستهتر، الذي لم يتورع ان يسلم بناته الثلاث للهلاليين بالمصاهرة كي يحمي ضعفه وعجزه.. فلما حاول خداع الهلاليين والغدر بهم انتقموا منه، ولم تكن القيروان يومئذ سوى مدينة تتقهقر بانتظام بفضل سياسة الاستنزاف التي مارسها ضدها الفاطميون واكملها بنو زيري واخرهم المعز نفسه. (9).

ولا شيء أكثر من ذلك عن باقي المدن والقرى التي أصابها الخراب والدمار... فإما انه حدث قبل الفتح الاسلامي، وبالطبع قبل هجرة الهلاليين، وإما حدث على يد جيوش اخرى غير عربية.

ولا يمكن ان ننسى هنا دور الصليبيين النرمان في تخريب مدن السواحل المغربية وهو دور يحتاج لا إلى حلقات بل إلى كتب (10) وهكذا يتضح - وفي عجالة - ان العرب عامة وقبائل بني هلال بوجه خاص ليسوا مسؤولين عن الخراب والدمار المشاهد بالبلاد اليوم، أو الذي كان في عصر ابن خلدون (11)

واذن فما هو دورهم الحقيقي طوال القرون الماضية! هل كانوا بناة للمدن والحضارة أم كانوا جالسين متفرجين؟

هوامش

1) تبرز هنا، كمصدر منحاز لأهل الأمصار ضد البدو، رحلة التجاني.

2) ليس في قصائد هؤلاء الشعراء ما يؤكد حدوث خراب ودمار . . . بل مجرد وصف لحالة الرعب والفوضى والنهب التي صاحبت اقتحام بني هلال لمدينة القيروان . . . وما حدث يتكرر دائما في كل الحروب والفتن.

3) هو كتاب « تاريخ العالم » للمؤرخ الروماني « أوروسيوس » الذي انفرد ابن خلدون مع ابن جلجل بتعريفنا بقصة ترجمته من اللاتينية إلى العربية (ق. 10) في الأندلس. وقد طبع اخيرا في نصه العربي.

4) على سبيل المثال حفريات الدكتور عمار المحجوبي بمنطقة باجة.

5) انظر توضيحات هامة للمرحوم حسن حسني عبد الوهاب حول قرطاجنة ومزاعم التخريب المنسوب للعرب(مجلة الفكر عدد 6 سنة 2 وعدد 3 سنة 14).

6) في القرن السادس عشر لاحظ الرحالة الشهير ليون الافريقي « حسن الوزان » ان بعض ضواحي قرطاجنة كان بها بقايا عمران مثل « المعلقة ».

7) لاحظ ان ازدهار قفصة بقي كاملا حتى هذا التاريخ أي مدى قرن ونصف بعد قدوم الأعراب ؟ !

8) ظلت الأربس مركزا عسكريا وإداريا وقضائيا إلى القرن السادس عشر حين تخلت عن دورها لمدينة الكاف وقد اضمحلت الآن تماما. ولنا عن عهودها الاسلامية بحث لم ينشر بعد.

9) راجع عن الكارثة الهلالية المزعومة وعن عهد المعز الصنهاجي بحثا جيدا بالفرنسية كتبه السّيد بونصي (J.Poncet) في مجلة E.S.C. Annales السنة 22 عدد 5 ـ باريس (سبتمبر ـ اكتوبر 1967) وقد عرف به ولخصه بالعربية تلخيصا ممتازا الأستاذ المنصف الشنوفي في حوليات الجامعة التونسية عدد 5 .

10) سنشير في حلقة مستقلة إلى بعض النصوص والآراء عن هذا الدور.

11) مما يلاحظ هنا ان الهدم والخراب الذي حدث للمعالم التاريخية ـ اسلامية ورومانية ـ في العهد البورقيبي يلفت النظر، وقد يفوق من حيث كثرة عدده وقصر مدته ما يمكن أن ينسب لبني هلال على مدى قرون ؟

تعمير افريقية وتعريبها

بالطبع، لا ،ليسوا متفرجين على الأحداث وليسوا بحكم بداوتهم مؤهلين ان يقوموا فور وصولهم ببناء المدن (1) ولكنهم فعلوا اكثر من ذلك. إنهم قدموا الطاقة البشرية والعقول المبدعة التي اسهمت عبر القرون في بناء المدن، وعلى الأخص في حمايتها من الدمار والخراب . . . كما اسهموا في ازدهار الثقافة والعلوم طوال عصور الاسلام وخاصة في صلب الدول البربرية نفسها !

وهذا يجرنا إلى ذكر الحقائق التالية ـ ولضيق المجال ـ ستكون في غاية الاختصار، وأشبه باللمح والعناوين ولنبدأ بالسلبيات :

أولا : أسهمت هذه القبائل غالبا في الحروب الأهلية والفتن الداخلية التي كانت تقوم دائما بين أمراء العائلة الواحدة المتنافسين (2) وكانت هذه القبائل مضطرة إلى ذلك، لأنها إما ضحية الاغراء المادي أو ضحية الخوف من الانتقام.

ثانيا : وفي نفس الظروف كانت تتعاون مع العصاة والثائرين، ولكن هذا ليس مطلقا، ففي اغلب الأحيان

يفعلون ذلك حيث يكون الحكم المركزي ضعيفا جدا، أو ظالمـا جدا، أو تكون ظروف القبائل الاقتصادية سيئة جدا بسبب الجفاف وانعدام وسائل الرزق.

ثالثا : ظروف حياتهم القائمة على الترحال والتنقل، مما يضطر بعضهم وهـم قلة، إلى نهب النابلة أو القرى الصغيرة التي يمرون بها.

على أننا حين نذكر هذه السلبيات، وربما يمكن أن نزيد في عددها، يجب ان نؤكد، بان القبائل العربية ليست وحدها التي كانت تمارس ذلـك، فالقبائل البربرية وجيوش الحكام انفسهم من الملوك والأمراء البربر والمماليك والثائرون والعصاة وأيضا الغزاة الصليبيون هم أكثر نهبا واعتداء على الآخرين.

ونأتي الآن إلى الدور الايجابي الحقيقي الذي قامت به هذه القبـائل فعلا، والذي يشير إليه بعض المؤرخين المعاصرين إشارات واضحة، ولكنها مختصرة جدا، وغامضة أحيانا (3).

ونكتفي هنا بالحقائق الكبرى التالية، وهي حقائق ثابتة من خلال الأحداث والنتائج التي لا يستطيع أحد أن يجادل فيها :

أولا : يتفق جميع الباحثين والمؤرخين النزهاء وغير النزهاء

على ان هجرة هذه القبائل من بني هلال وسُليم كانت أهم حدث تاريخي في المغـرب العربي طوال عهود الاسلام فيه. ويصرح بعضهم بأنها كانت أبعد أثرا واعمق نتائج من جيوش الفتح التي تعاقبت على بلاد المغرب طوال القرن الأول الهجري.

ثانيا : ان هذه القبائل يعود إليها الفضل الأول في اعادة تعمير البلاد المغربية بشريا بعد ان كان سكانها الأصليون قد استنزفتهم الحروب والفتن وخاصة في عهد الرومان والوندال، وكـذلـك في عهـد الفـاطميين الذين استنزفوا من أهلها في حروبهم زهاء المليون جندي فقط عدا المدنيين ويكفي دليلا ان المعز الفاطمي حين انتقاله من المهدية إلى القاهرة قد حمى نفسه واسرته بمائة ألف جندي من البربر، وهذا عدا من سبقه بهم قائده جوهر عند استيلائه على مصر وبلاد الشام. ومن الثابت ان عدد جيوش جوهر كان يزيد عن مائة ألف فضلا عن الامدادات اللاحقة.

ثالثا : لم يتأخروا عن المساهمة في توحيد الأقطار المغربية ترابيا أو سياسيا كلما أمكنهم ذلك، وكثيرا ما لبّوا نداء الوحدة وعملوا من أجلها في صفوف القادة والزعماء والملوك والأمراء الموحدين. وحيثما وجد قائد مقتدر، ولم يكونوا قط متعصبين، فجميع الزعماء والملوك البربر الذين عملوا من أجل الوحدة

السياسية أو الترابية لأقطار المغرب وجدوا في معظم القبائل العربية العون والمناصرة. ابتداء من حركة الموحدين بقيادة عبد المؤمن بن علي وانتهاء بالأمراء الحفصيين والحسينيين وغيرهم.

رابعا : دافعوا عن المسلمين في الأندلس وتحملوا قسطا كبيرا من الخسائر البشرية تحت قيادة الموحدين لحماية الاسلام والمسلمين من الهجومات المسيحية المتوالية عليهم وكان ذلك هو العامل الوحيد في تأخير محنة المسلمين وجلائهم عن الأندلس لمدى أربعة قرون كاملة.

خامسا : حموا البلاد المغربية والمدن الساحلية بالخصوص، من الغارات الصليبية، وما كان ينتج عنها من تخريب للعمران واسترقاق للمواطنين وذلك لأنهم كانوا القوة العسكرية والبشرية الضاربة في البلاد، بعد ان ضعفت وتشتت العناصر الأخرى لاسيما البربر.

سادسا : كانوا عاملا فعالا، حيثما استطاعوا على سيادة الأمن والاستقرار ولا سيما في المواطن التي تحت نظرهم أو حمايتهم. وبصفة خاصة في الفترات التي لا يشعرون فيها بظلم أو حيف أو قهر من قبل السلطة المركزية. وقد اثبتت الوقائع التاريخية انه كلما كان الحكم المركزي قويا والدولة

مهابة الجانب. كان العرب هم مصدر قوتها، وهم أيضا العامل الفعال لازدهار احوالها واستقرار أمنها.

سابعا : كان هؤلاء الاعراب العامل الأساسي لازدهار وانتعاش الكثير من المدن المغربية بعد ضعفها أو انهيارها مثل قفصة وقابس وبجاية وتونس وبلاد الجريد وغيرها. والمؤرخون الأجانب يعترفون بذلك قبل سواهم.

ثامنا : كان لهم دور كبير، في إحياء الأرض والزراعة والتشجير المثمر في تونس والمغرب الأقصى، وخاصة في عهد الموحدين. وقد شهد أكثر من مؤرخ بأن كثيرا من العرب تحولوا إلى فلاحين منتجين (4) وانهم لذلك قد عوضوا العناصر الأخرى كالبربرالذي افنتهم الحروب والمجاعات أوالهجرة والنزوح إلى الأندلس والمشرق.

تاسعا : انهم كانوا الروافد البشرية والعقلية المستمرة للمدن، فهم الذين بسكناهم فيها حافظوا، ليس على عمرانها وازدهارها الاقتصادي فقط، بل شهد التاريخ والواقع المعاصر ان هذه القبائل كانت على الدوام تعطي المدن معظم علمائها وأدبائها وأصحاب الاختصاصات الأخرى (5).

عاشرا : وأخير ـ يعترف جميع المؤرخين المعاصرين، بأن أعظم ما أحدثته هذه القبائل العربية، هو تعريب السكان

جماعيا ونهائيا عن طريق المخالطة والمصاهرة والمعايشة المشتركة في الحياة والأرض (٥) الأمر الذي جعل جميع سكان ليبيا وتونس يتكلمون العربية وجعل الأغلبية الساحقة من سكان الجزائر والمغرب وموريطانيا مستعربين أو عربا.

كذلك تم تعريب الثقافة والحضارة والادارة في جميع عهود الاسلام وفي جميع البلاد المغربية من منتصف القرن السادس (٦) إلى ظهور الاستعمار الحديث في القرن الثالث عشر الهجري التاسع عشر الميلادي.

ويشهد بهذه الحقيقة ان جميع الدول الاسلامية التي قامت في المغرب العربي وعددها بالعشرات كانت كلها ـ باستثناء أربعة منها ـ بربرية، ومع ذلك كانت لغة امرائها واداراتها عربية وازدهرت في ظلها الثقافة والاداب والحضارة العربية، وما ذلك الا ـ أولا وبالذات ـ بفعل العناصر العربية الرافدة من هذه القبائل ثم من أهل الأندلس النازحين للمغرب في القرون المتأخرة.

وما يقال عن التعريب يقال عن الدين فبفضل هذه القبائل استطاع الاسلام ان يكون الدين الوحيد في كامل الشمال الافريقي من حدود مصر الغربية إلى المحيط الأطلسي.

خاتمـة :

وهكـذا ترون معي ـ أيها القـراء ـ ان قبائل العرب أو الاعراب من بني هلال وسليم المهاجرة اصلا من بلاد الخليج العربي وجنوب العراق، لم تكن قط عنصر تدمير للحضارة أو تخريب للعمـران. كما اخـطأ ابن خلدون واستغـل ذلـك المستعمرون، بل كانوا على العكس من ذلك تماما بناة للحياة وعاملين على ازدهار الثقافة والعلوم. وكانوا قبل ذلك وبعده خير من حقق للعروبة وللاسلام اكبر الأمجاد واعظم الرسالات.

اذ ان هذه القبائل بالذات هي التي كان لها الدور الحاسم والأكـبر في انتشـار الاسـلام والتعـريب البشري واللغـوي والثقافي في كامل بلاد المغرب وان دورها في ذلك يفوق بكثير دور جيوش الفتح الاسلامي طوال القرن الأول الهجري.

وعـلى ذلـك، فان اقـطار المغرب العربي الخمسة ـ ليبيا وتونس والجزائر والمغرب وموريطانيا ـ لئن كانت اليوم عربية ومسلمة . . . عربية اللغة والثقافة والاتجاه، اسلامية الدين والعقيدة، فان الفضل في ذلك ـ والتاريخ شاهد على ما أقول ـ انما يعود إلى أبناء هذه القبائل الذين حملوا راية الاسلام ولغة العـرب بحمية وشجـاعة من بلاد الشام قادمين من جنوب الجزيرة العربية، مرورا بمصر، إلى أقصى بلاد المغرب، وهم

الذين جعلوا سكان المغرب العربي البالغ عددهم اليوم ستين مليونـا، شعبا مسلما شديد التعلق والتمسك بدينه الحنيف وعـربيا قوي الشعـور والـولاء. للعـروبـة الخـالـدة ولكـل طموحات العرب ووحدة مصيرهم.

الهوامـش

(1) من المـدن الـتي بنـاهـا الـعـرب الـسـابقـون، بعـد القيروان : سوسة، وصفاقس والمسيلة والمهدية . . . الخ .

(2) الثورات والفتن الداخلية بين ملوك وأمراء الدول والدويلات في المغـرب لا تحصى ولا تعد . . . من ذلك ما حدث بين أمراء بني حفص وفي عهد الدايات والبايات مثل المعارك بين الباشية والحسينية .

(3) هذا ما فعله ش. أ. جوليان في الجزء الثاني من كتابه « تاريخ شمال افريقيا ».

(4) يعترف بذلك حتى جوليان نفسه.

(5) نعرف ذلك من خلال انساب العلماء والأدباء.

(6) أكد هذه الحقيقة ابن خلدون في تاريخه.

(7) ظلّت المسيحية وكـذلك اللغة اللاتينية الافريقية موجودة في عدد من مدن الســواحـل . . . وبصفة خاصة في قرى الجبال بقفصة وبعض قرى الجريد وقد أشار لذلك ابن الشباط والشريف الادريسي.

قضايا تاريخية وأدبية
حول قابس

تمهيـد

خلال المـراجعـات المستمـرة لكتب التاريخ والتراجم، ولمجمـوعـات الـدواوين والنصـوص الأدبية تواجه الباحث والمراجع باستمرار قضايا تاريخية، واشكالات أدبية، يتعلق بعضهـا باحـداث محرفة أو مزورة، وبنصوص منسوبة لغير أصحابها أو لغير عصرها.

وفي هذا السياق تندرج ثلاث قضايا تاريخية من بينها نص أدبي واحد له علاقة وثيقة بحادث تاريخي ثابت ومعروف.
وجميع هذه القضايا تتصل بمدينة قابس تاريخيا أو أدبيا، وحقيقيا أو اسطوريا.

وبنـاء على هذه العلائق الوثيقة رأيت أن تبحـث في هذه المناسبة (1) ونحن في قابس ومع أهلها. لا سيّما وأن بعض المعاصرين لنا لم يصدق بما ليس ثابتا ولا صحيحا منها فقط، بل أفتخر به ومجده لنا في كتاباته (2).

القضيـــة الأولـــى

زعم البعض من مؤرخي الأدب ومؤلفي كتب التراجم أن أبـا الـطيب المتـنـبـي حين هرب من كافـور مصر عام 350/961 . قصد المغرب ليلتحق ببلاط المعز الفاطمي، وأن ابن هانىء الأندلسي علم بذلك وخشى منه على مكانته لدى المعز فاعترض طريقه إليه وتحيّل عليه بحيلة بارعة انطلت على المتنبي واقنعته بالعودة إلى الشرق.

والطريف هنا هو أن مخترعي هذه الحكاية قد جعلوا اللقاء المزعوم حول مدينة قابس. كما جعلوا موضوع الحيلة والحوار بين الشـاعـرين هو قابس أيضا، من خلال حادث تاريخي حقيقي، وشعر قيل فعلا عن قابس في ذلك الحادث التاريخي الثابت والصحيح. وأول كتاب وردت فيه هذه الأسطورة، حسبما نعلم، هو (**مرآة الزمان**) لأبي محمد عبد الله اليافعي اليمني المتوفى سنة 768/1366 .

فقد نقل اليافعي الحكاية عن رواة يبدو أنهم مغاربة أو من ذوي الـصلة بهم، لكنـه أوردهـا مع شيء من الاحتياط مستخدما لفظ (لعل) على احتمال أن لا يكون ابن هانىء هو الشاعر الملتقي بالمتنبي وبذلك لم ينف اليافعي اللقاء ذاته، ولا الحادثة نفسها.

ومن الأنصاف أن نقول بأن اليافعي قد أورد الحكاية من باب الطرافة والرواية فقط لأنه :

أولا : لم ينقلها من مصدر مكتوب وقديم العهد، بل مشافهة من ادعياء المعرفة بشؤون افريقية وشعرائها.

ثانيا : لأنه تخلص من مسؤليتها حين علق في آخرها بقوله : « ولكن ما رأيت أحدا من المؤرخين ذكر للمتنبي دخولا إلى بلاد المغرب والله أعلم ».

ومع هذا التعليق الواضح الصريح، فإن هذا الخبر المنحول والحكاية الملفقة حول لقاء ابن هانيء بالمتنبي عند مشارف مدينة قابس قد صدقه مؤرخون آخرون، وأشاعوه في كتبهم فصار وكأنه حقيقة تاريخية ثابتة لا مجال للشك أو الطعن فيها. وفيما يلي نص الحكاية كما أوردها اليافعي، ثم نتابع بعد ذلك مسيرتها التاريخية :

« . . . ولعل ابن هانيء المغربي المذكور(3) هو الذي وقع بينه وبين المتنبي ما يحكى من القصة العجيبة عند وصوله (4) إلى قابس لمدح صاحب افريقية . . فإن الشاعر الذي ذكروا أنه رد المتنبي عن ملاقاة صاحب الأندلس (5) ومدحه، بالحيلة التي ذكرها داهية في المكر. فإنه حكي ان المتنبي لما خيّم بإزاء قصره في زي أمير في الحشمة والغلمان والخدم والخيل والاتباع والحشم (6)فزع صاحب قابس من ذلك

وسأل عنه. فلما قيل له انه شاعر أتى ليمدحك كره ذلك وقال : أي شيء يرضي صاحب هذه الهيئة ؟ ! ويقنعه من الجائزة ؟ ! فقال شاعره : أنا أرده عنك. وغالب ظني أنهم قالوا : أنه ابن هانىء فقال له : بأي وجه ترده، عني ؟ فقال : بوجه جميل. فقال إفعل. فأخذ شاة رديئة ولبس لباس بدوي وجعل يقود الشاة متوجها إلى جهة منزل المتنبي وهو في مخيم كأنه مخيم أمير.

« . . . فلما وصل إليه وهو يقود الشاة في تلك الهيئة التي اتصف هو وشاته بها، ضحك منه هو ومن حوله. وقال له :

ما هذه الشاة ؟

قال : هذه جائزتي من الملك !

قال : جائزة ؟ !

قال : نعم !

قال : جائزة على ماذا ؟

قال : على مدحي له.

فتعجب من ذلك وقال :

عسى أن تكون جائزته على قدر مدحه.

ثم قال له اسمعني مدحك له كيف قلت فيه. قال : قلت :

ضحك الزمان وكان قدما عابسا

لما فتحت بحد عزمك قابسا

أنكحتها عذراء وما أمهرتها
إلا قنا وصوارما وفوارسا
من كان بالسمر العوالي خاطبا
جلبت له بيض الحصون عرائسا

فتحير المتنبي عند سماع شعره، وقال : أنا ما أقدر أقول مثل هذا الذي أجازه عليه بهذه الشاة. فارتحل راجعا من حيث جاء !!

هكذا حكى لي بعض أهل الخبر ممن له إلمام ومعرفة ببعض الشعراء من جهة المغرب . . . ولكن ما رأيت أحدا من المؤرخين ذكر للمتنبي دخولا إلى بلاد المغرب ». (7) هذه هي الأسطورة كما رواها اليافعي في منتصف القرن الثامن الهجري وقد استمرانتشارها بروايات مختلفة إلى نهاية القرن الحادي عشر الهجري، السابع عشر الميلادي، حين تصدى لها ناقد أدبي حصيف هو الشيخ يوسف البديعي المتوفي 1073 هـ/1662 ، وقد هالته جهالة ناقليها واستبشع ما تنطوي عليه من سذاجة وغفلة.

والغريب أيضا أن مخترعي الأسطورة قد طوروها خلال هذه القرون الثلاثة وجعلوها صراعا ومنافسة بين ابن هانىء والمتنبي على المكانة والحظوة لدى بلاط المغرب ثم زادوها

سخفا حين كرروا اللقاء بعد ذلك في بلاط سيف الدولة في حلب (8).

وقبل تفنيد الأساس المختلق لهذه الأسطورة، وهو اللقاء حول قابس وقصيدة ابن هانىء المزعومة عن قابس في هذه المناسبة؛ تنقل ما يقوله الشيخ البديعي عن هذه الأسطورة وما أضيف إليها مع الأيام من زيادات وتحوير. وسنلاحظ أن البديعي لا يحترز منها بـ (لعل) كما فعل اليافعي بل نراه يسخر منها ومن سذاجة المصدقين لها، مشيرا في وضوح إلى أصلها الأول الذي قلدته ونسجت على منواله.

شهادة البديعي

يقول البديعي في كتابه: «**الصبح المنبي عن حيثية المتنبي**» ما نصه:
« ومما اشتهر بين الطّغام (9) الذين هم كالأنعام أن أبا الطيب يمم المغرب بجماعة كثيرة، والات خطيرة، ونصبت خيامه على باب مدينة حاكمها، فارتجت له دعائم معالمها، واستكشف خبره، فإذا هو شاعر أتاه، وعلم أنه يعجز عن رضاه، فقال شاعره وهو ابن هانىء الأندلسي: عليَّ رده قبل أن تراه. ثم تزيا بزي غث، وتجلبب بجلباب رث،

وعمد إلى شيء من الحنطة والشعير، ووضعهما على أحد الحمير، ثم مر بالمتنبي ، وهو ينظر إلى الماء وتجعيده بيد الهواء وهو يكرر هذا الشطر (نسج الريح على الماء زرد) .

فقال ابن هانىء : (يا له درع منيع لو جمذ)، فسأله أبو الطيب عن خبره ، فأخبره أنه شاعر تلك البقاع ، فاستنشده ، فأنشده من مدائحه في مخدومه ما تسكر منه الاسماع :

ضحك الزمـان وكان قدمـا عابسـا
لما فتحـت بسيـف عزمـك قابسـا
أنكحتهـا بكـرا ومـا أمهرتهـا
إلا قنّـا وقواضبـا وفوارسـا
من كانـت البيـض الصـوارم مهـره
جلبت لـه بيض الحصـون عرائسـا
اللـه اكبـر مـا اجتنيـت ثمارهـا
الا وكـان أبـوك قبلـك غارسـا

فقال : ما حباك على هذه القوافي الجليلة ؟ فأشار إلى ما على حماره، وقال هذه الجائزة الجزيلة ، ، فقوض عن المغرب خيامه، وجعل المشرق أمامه . وبعد برهة من الزمان قصد ابن هانىء سيف الـدولـة بن حمدان، والمتنبي اذّاك شاعره، ونديمه، وصاحبه، وحميمه، وكان اطلع على تلك المكيدة، وصمم على أن يكيده، فتلقاه تلقى كثيرا لعزة، وأحله داره

وأعـزه، واستـطلع رأيه في مدح سيف الـدولة، وسأله عن أسلوبه، ليتبع قوله، فأرشده، فنظم على ذلك الأسلوب ما تسجد له جباه الافهام، ولما مثل لينشده، رآه مباينا لذلك المقام :

سـارت مشرقـة وسـرت مغربـا
شتـان بيـن مشــرق ومغـــرب

ولما أنشده ما أبدعه فلم يطرب، علم أن واحدة بواحدة جزاء، فعـدل عن ذلك الأسلوب، وأعمل قريحته، وشحذ فكرته، ونظم قصيدته التي أولها : « فتقت لكم ريح الجلاد بعنبر » وأنشدها على ريق لم يبلعه، ونفس لم يقطعه، فأعجب به سيف الدولة اعجاب ابن المعتصم بحبيب (10) وحظى في ذلـك الوقت من الجوائز بأوفر نصيب، فحسدته الشعراء، وغبطته الأدباء، فقال المتنبي : لا يحسد الميت على النزاع، ولا يغبط من عدم بحياته الانتفاع، وسئل عن معنى ذلك فقـال : رأيته قد صوح تحت أقدامه. أخضر النبات، وحمّ ذلـك المسكـين لوقتـه، ثم مات. وهـذه الحكاية الموضوعة والغريبة المصنوعة (11)، تروى على وجوه مختلفة، وأنحاء غير مؤتلفة، وهي مأخذوة من خبرين لأبي تمام . . . » (12)

ثم يسـوق البـديعي الخبرين المذكورين ويورد في النهاية قصيدة ابن هانىء المزعومة في سيف الدولة، ويقول في

تقديمها :

« وهـذه قصيدة أبي القاسم محمد بن هانىء، الأندلسي المـزعـوم أنها في سيف الدولة ابن حمدان وهي في أبي الفرج الشيباني . . . » (13).

« من الواضح ان الأسطورة قد تطورت في نص البديعي وأضيف لها مزاعم أخـرى هي اقرب إلى السخف التاريخي والسذاجة القصصية منها إلى أي شيء آخر.

ويبدو أن رحلة ابن هانىء المزعومة إلى بلاط سيف الدولة لمنافسة المتنبي على مكانته عنده هي اختراع مشرقي صنع للرد على ما زعمه المغاربة من رحلة المتنبي إلى بلاط المعز بعد فراره من مصر.

ومن السهـل ادراك رد الفعـل هذا من خلال الصورتين المختلفتين جدا المصور بهما الشاعران في الاسطورة سواء في نصها الأول أو نصها الأخير فالمتنبي محاط بهالة من العظمة والأبهة والبذخ وهو يسير في موكبه وكأنه أمير، بينما ابن هانىء يظهر في هيئة مزرية، وفقر مدقع، وذلك رغم غطاء الحيلة الذي برروا به هذا المظهر، غير أن حالته المزعومة في بلاط سيف الدولة لم يعط لها اي تبرير.

ومن المعلوم ان ابن هانىء، لم ير أي شبر من أرض الشرق

(14) وان اقصى ما وصل إليه هو حدود مصر الغربية، عند مشارف برقة، وذلك حين رافق المعز الفاطمي سنة 972/361 اثناء رحيل الدولة الفاطمية إلى مصر، فودعه عند حدود برقة وعاد إلى القيروان ليحمل عياله وماله ويلحق بالمعز، وفي برقة قبل اجتيازه الحدود، قتل ابن هانىء (15) في رجب سنة 973/362 علما بأن المتنبي كان قد مضى على وفاته ثماني سنوات حيث قتل هو الآخر في العراق، عائدا من ايران في رمضان سنة 965/354.

تأكيد الحقيقة

وهكذا نرى ان اي لقاء بين الشاعرين لم يحدث قط، لا في المغرب ولا في المشرق. وتأكيدا لهذه الحقيقة نضيف :

أولا : لقد أجمع المؤرخون على أن المتنبي قد خرج من مصر سنة 961/350، هاربا، متخفيا دون ان يُعلم أحدا بذلك حتى أعوانه وخدمه، ليضمن سلامته ويتقي شر ملاحقة كافور له. وفي هذه الحالة عليه أن يتجه إلى أماكن يتأكد سلفا بانه سيجد فيها حظوة ومكانة وأمنا، وهذا ما كان ميسورا له في بلاطات الشرق. أما المغرب فأمره لم يكن معروفا، كما أن ذهابه للمغرب وهو غير عالم بمصيره من شأنه أن يسد عليه طريق العودة إلى مصر، ولا نعلم مدى استعداده

لركوب البحر.

ثانيا : طريق فراره إلى الشرق اقصر من طريقه للمغرب.

ثالثا : الطريق المشرقية يعرفها جيدا اذ كان قد تنقل فيها من قبل وليست كذلك طريق المغرب.

رابعا : والأهم من هذا كله ان ابن هانىء لم يكن في هذا التاريخ معروفا في غير بلاط جعفر بن علي حاكم المسيلة (المحمدية)، ولم يكن المعز قد فكر في ضم ابن هانىء إلى شعرائه، وربما لم يسمع به بعد، في حين ان المتنبي كان معروفا في الشرق، وغير بعيد ان يكون صداه قد وصل إلى المغرب وخاصة للمعز نظرا لاهتمامه بالشرق وبمصر بالذات . . والمؤكد على كل حال ان شعر المتنبي لم يكن رائجا في المغرب في هذا التاريخ وربما إلى سنة 978/360 غير ان شهرته كانت معروفة وهي دائما تسبق الانتاج في الانتشار (16).

خامسا : لو كان المتنبي قد عزم فعلا على المجيء إلى المغرب لما رده أحد لما نعرف عنه من الطموح الجارف والاعتداد بالنفس.

سادسا : إن ابن هانىء كان حتى عام 963/352 مقيما بالمسيلة وهي تبعد كثيرا عن قابس، فضلاً عن أن الرواية تجعل مكان اللقاء بين الشاعرين أبعد من قابس بمرحلة باتجاه الشرق.

سابعا : نحن لا نعلم بأن المعز الفاطمي قد أعاد فتح

قابس في عهده، ولا أن هذه المدينة قد أعلنت العصيان عليه طوال حكمه.

وإذا فإن حكاية اللقاء المزعوم بين المتنبي وابن هانىء حكاية ملفقة بجميع أجزائها وعناصرها وأن الشعر المنسوب فيها لابن هانىء ليس له أيضا، وسنعرف قائله وظروفه الحقيقية في القضية الثانية.

والذي نراه أن التنافس الأدبي بين المشرق والمغرب هو الذي أوحى بهذه الأسطورة، وعمل على تطويرها ونشرها، وإن كان مخترعوها لم يحبكوا نسجها فجاءت مهلهلة وساذجة، وعلى درجة عالية من الغباء التاريخي والغفلة العقلية.

وهي دون شك، نسيج مشترك مشرقي ومغربي، خاصة في صورتها الأخيرة كما أوردها البديعي في القرن الحادي عشر هـ.

تعليقات واحالات

1) المناسبة هي : انعقاد ملتقى أبي لبابة (عن الاسلام تاريخا وحضارة) في دورته الثانية بمدينة قابس أيام 9 ـ 11 /1/1981 .

2) راجع مجلة الثريا س 3 ع 7 ص 13 (يونيو ـ يوليو 1946) تونس.

3) أي المذكور في الترجمة التي أوردها عنه ج 2 ص 375 ـ 379 .

4) أي المتنبي كما هو واضح في السياق.

5) في نص اليافعي اضطراب واضح حول الأمير الذي قصده المتنبي، فهو تارة « صاحب افريقية » وأخرى « صاحب الأندلس » وثالثة « صاحب

قابس » ؟ | لأنـه « خيم بإزاء قصره » أي بقـابس ؟ وهذا يدل على انعدام التصور الصحيح للواقع المغربي تاريخا وجغرافية .

6) نلاحظ هنـا هالـة العـظمـة ومـظاهـر الأبهـة التـي أضيفـت علـى المتنبي . . وكأنه أمير أسطـوري | كما نلاحظ أن مثل هذه الحكاية قد لفقت حول ابن هانىء مع صاحب المسيلة .

7) مرآة الزمان ج 2 ص 378 ـ 379 .

8) لم ينتبه واضع الأسطورة في شكلها الأخير كما نقله البديعي ـ إلى أن المتنبي بعد خروجه من مصر لم يعد قط إلى سيف الدولة .

9) الطغام : أوغاد الناس (محقق النص) .

10) ابن المعتصم : احمد ابن المعتصم ، حبيب : أبو تمام . ويشير بذلك إلى مدح أبي تمام لأحمد ابن المعتصم بسينيته المعروفة (محقق النص) .

11) قال محقق النص شارحا « وجه الصنعة أن المتنبي وابن هانىء وان كانا متعاصرين إلا أنه لم يعرف ان الأول زار المغرب وان الثاني زار المشرق » .

12) الصبح المنبي عن حيثية المتنبي ص 321 ـ 322 .

13) ص 235 وقصيدة ابـن هانـىء هي : « فتـقت لكم ريح الجـلاد بعنبر . . » وقد توهم البديعي ان ابن هانىء قالها في الشيباني . . والمعروف المشهور انه قالها في جعفر بـن علي صاحب المسيلة (المحمدية) ، انظر الديوان في أي طبعة له .

14) ذكـر ابن هانىء في احدى قصائده التي هجا بها شخصا أعاره ديوان المتنبي ثم ألحف في استرجاعه ، بأنه لم ير المتنبي وان تبجح بانه رآه ونقل عنه ديوانه ، ونص البيت الذي يفيد ذلك من هذه القصيدة (الديوان ص 330 هو :

تهتـم علينـا بمرآه وعلكـم لم تدركـوا منه لا عينـا ولا أثـرا

15) وفيات الأعيان ج 4 ص 422 وكنز الدرر ج 6 ص 254 .

16) راجع التعليق رقم 14 والقصيدة المشار إليها فيه .

القضيـة الثانيـة

تتعلق بالنص الأدبي أي القصيدة المستشهد بها في القضية السابقة، والتي نسبتها جميع الكتب الناقلة لتلك الأسطورة إلى ابن هانىء باعتباره قد قالها بعد اعادة فتح قابس وارجاعها إلى طاعة حاكمها، على اختلاف هنا، بين تلك المصادر فيمن هو هذا الفـاتح ؟ هل هو أميرها الحاكم لها أم هو أمير افريقية والحاكم الأعلى لعموم أقاليمها ؟ . .

إن القصيدة المشار إليها، ولا شك أنها طويلة، لم تصل إلينا كاملة في أي مصدر تاريخي أو أدبي معروف. غير أن ابن الأثير هو الوحيد الذي أورد لنا أطول اختيار منها في كامله بلغ سبعة أبيات، في حين اقتصر الآخرون على أبيات ثلاثة أو أربعة فقط [1] .

وفيما يلي نص المقـطوعـة كما اختارها ابن الأثير [2] مع تصحيحها من المصادر الأخرى :

ضحك الزمـان وكان قدمـا عابسـا
لما فتحت بحد سيفـك قابســا

اللـه يعلم ما جنيـت ثمارهـا
إلا وكان أبـوك قبلـك غارسـا

أصدقتَ عذرتها نكاحا جائزا

سمر القنا وبواترا وفوارسا

من كان بالبيض القواضب خاطبا

حلّت له بيض البلاد عرائسا

فابشر تميم ابن المعز بفتكة

تركتك من اكناف قابس قابسا

ولوا . . فكم تركوا هناك مصانعا

ومقاصرا ومخالدا ومجالسا

فكأنها قلب وهن وساوس

جاء اليقين فذاد عنه وساوسا

وبدون أن ندخل في التفاصيل، واعتمادا على البيانات السابقة نستطيع أن نؤكد ما يلي :

أولا : ان الشعر المذكور ليس لابن هانىء إذ لا يوجد في ديوانه المطبوع على كثرة طباعاته، ولا المخطوط على كثرة نسخه.

ثانيا : إن البيت الرابع من المقطوعة يذكر صراحة اسم تميم ابن المعز باعتباره الفاتح والممدوح في وقت واحد.

وهذا البيت لم يرد قط في جملة الأبيات التي ضمنت في أسطورة اللقاء المزعوم بين ابن هانىء والمتنبي، في جميع المصادر التي تناقلتها ماعدا الكامل ونهاية الارب.

ثالثا : ان فتح قابس المذكور في القصيدة قد حدث فعلا في التاريخ ، ولكن ليس في زمن المعز الفاطمي بل في عهد تميم ابن المعز الصنهاجي (3) وعلى التحديد سنة 489/1095 أي بعد أكثر من مائة وعشرين سنة من وفاة ابن هانىء، والبيت الخامس منها دليل على ذلك. وقد أورد أخبار هذا الفتح ابن عذاري في بيانه (4) وابن الأثير في كامله (5) والتيجاني في رحلته (6) وابن خلكان في وفياته (7) غير ان ابن عذاري لم يذكر الشعر معه في حين اقتصر التجاني وابن خلكان على أبيات ثلاثة أو أربعة فقط. أما ابن الأثير فهو الوحيد الذي أورد الأبيات السبعة وذكر هو وابن خلكان قائلها، وكذلك فعل النويري في نهاية الأرب.

رابعا : إن الشاعر القائل للقصيدة هو ابن محمد خطيب سوسة كما ذكره ابن خلكان (الوفيات ج 3 ص 322) وابن الأثير (الكامل ج 8 ص 180). والنويري (ج 24 ص 233)

ولئن كنا لا نعرف شيئا عن هذا الشاعر فإننا لا نشك قط في صحة ما نسبه إليه ابن الأثير ومن جاء بعده فهو بدون شك شاعر معاصر للسلطان تميم الصنهاجي الذي كان بدوره شاعرا ممتازا، وكان محيطه حافلا بالشعراء الذين ضاعت أشعارهم وأخبارهم مع ما ضاع من تراثنا وتاريخنا.

ويمكن التأكيد بان ابن محمد خطيب سوسة قد كان شاعرا في مستوى المحيط الأدبي الذي كان حول الأمير تميم. وإذا كان لابد من أن ننتظر الأيام لتكشف عن حقيقة هذا الشاعر وأشعاره فإننا على يقين تام بأن هذه القصيدة قد قيلت عن مدينـة قابس في عهـد تميم ابن المعـز الصنهاجي وفي تلك الظروف الخاصة بها، وان لا علاقة لها قط بالمعز الفاطمي ولا بعصره، ولا هي من أشعار ابن هانىء المغربي الشهير بالأندلسي.

تعليقـات واحـالات

1) في وفيات الأعيان ج 3 ص 322 (أربعة أبيات) وفي التيجاني ص 197 (ثلاثة). وفي نهاية الارب ج 24 ص 233 ـ 234 (سبعة)

2) الكامل ج 8 ص 180 واقتصر البديعي على أربعة أبيات.

3) تولى الحكم بعد وفاة أبيه بالمهدية عام 1062/454 وتوفي بها سنة 501 هـ / 1107.

4) ج 1 ص 302.

5) ج 8 ص 180.

6) ص 97.

7) ج 3 ص 322.

القضية الثالثة

القضية الثالثة والأخيرة في هذا المجال بعيدة زمانا ونوعا عن القضيتين السابقتين. فمن حيث الزمان تصعد بنا إلى القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي، ومن حيث النوع تتصل بالانساب القبلية والجغرافية، وتتعلق ـ على التحديد ـ برجل عالم فذّ كان حجة المحدثين في عصره، ومن كبار المؤرخين في أيامه، وهو شاهد عملاق على ثقافة عصره واهتمامات جيله. اعني المحدث والمؤرخ الشهير، حجة الاسلام احمد بن حجر المولود في القاهرة سنة 1372/773 والمتوفى بها سنة 852/1449.(1).

كان ابن حجر حجة في الدين والتاريخ والانساب والأدب وترك عشرات المؤلفات في شتى المعارف والعلوم وقد اعتنى به المستشرقون منذ القرن الماضي، فحققوا بعض آثاره، وترجموا شيئا منها (2) وحاول بعضهم تحقيق هويته واصله الذي انحدر منه وانتسب إليه قبيلة ومكانا فكانوا بذلك روادا في أحياء تراثه وكشف الغبار عنه.

ومن طريف الصدف هنا، ان المستشرق الذي اعتنى بابن خلدون ولفت الاهتمام إليه، ونشر آثاره في القرن الماضي كان هو نفسه الذي عنى بابن حجر واهتم بحياته وكتبه، وحاول ان يتأكد من اصله ونسبته، فاعتبره منحدرا من اصل تونسي، ونسبه إلى قبيلة كانت ضاربة بين قابس والجريد، وعده بذلك قابسيا من حيث جذوره التاريخية والبشرية . .

وهذا الباحث المكتشف هو المستشرق الفرنسي المعروف كاترمير (Quatremere) الا ان هذه القضية التاريخية الهامة قد بقيت خافية محجـوبـة مدة قرن كامـل رغم تحريك هذا المستشرق لها وكثـرة المعنيين والدراسين والمحققين لاثار ابن حجر ومؤلفاته وحياته .

ومنـذ سنـوات قليلة خلت انتبـه لها عدد قليل جدا من الباحثين لحياته وعصره. وبعض المحققين لتراثه وكتبه. غير ان هؤلاء الأخيرين قد انقسوا فريقين، فمنهم من نقل ذلك وسلم به، ومنهم من ناقشه وعارضه، وحاول نفيه ورفضه من أساسه (3).

والقضية ـ كما نلاحظ ـ دقيقة جدا وفي غاية الاهمية تاريخيا وعلميا. ولا يمكن البت فيها الا بعد استقراء كامل للنصوص كلها، ولمعطيات التاريخ جميعها . .

علما باننـا مازلنـا نجهل الكثير والكثير جدا عن القبائل العربية في تونس خاصة والمغرب عامة وعن انتسابها وتحركاتها وعن فروعها وتطور حياتها ومسمياتها .

لكل ذلك سأكتفي هنا بإثارة القضية وعرض أهم الآراء والوثائق عنها في انتظار اكتشاف ما يؤكد أو يرجح هذه النظرية أو تلك وهذا أو ذاك من الأحكام والافتراضات . .

وقـد لخص لنـا القضية بكـاملها وأورد أهم الآراء عنها الأستـاذ حسن حبشي في تقديمه لكتاب ابن حجر المسمى « إنباء الغمر بأنباء العمر » (٤) وهو كتاب في التاريخ يقع في أربـع مجلدات كبار، حققه الأستاذ حسن حبشي وترجم في تقديمه لمؤلفه وقال عن أصل ابن حجر ما نصه :

« هنا نعرض لمسألة أخرى هي أصله، وقد أشار إليها في غير وقفة طويلة جماعة من المؤرخين في عصره، وأول هؤلاء أبو المحاسن يوسف ابن تغرى بردى(صاحب النجوم الزاهرة) في معجم تراجمه المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي » فذهب إلى القول بأن أسرة ابن حجر قدمت أصلا من بلاد الجريد على حدود قابس في الجـزائـر (٥). وأشار إلى ذلك في قوله (وابن حجر نسبة إلى آل حجر، تسكن الجنوب الأخر على بلاد الجريد وأرضهـم قابس) ولم يجهد أبو المحاسن نفسه في تبيان المصدر الذي اعتمد عليه في تقدير هذ النسب، وإن ما ذهـب إليه صاحب « المنهـل » لينـطوي على خطإ تاريخي ضخم، إذ ليس في سلسلة نسب ابن حجر سواء التي ذكرها هو نفسه أو حفيده أو غيرهما من ثقات المؤرخين ـ ما يفصح عن الاشارة إلى مثل هذا الموطن لأحد من أسلافه . . وليس في ثبته اسم بربري (٦) وسكت عن هذه الاشارة العيني في « عقد الجمان » والسخاوي « في الضوء اللامع » والسيوطي في « نظم العقيان » وظلت مطوية حتى قيض لها أن تبعث في

القرن الماضي على يد المستشرق الفرنسي كاترمير الذي أرجع ابن حجر إلى قبيلة عربية سكنت منطقة بلاد الجريد، وليس من شك في أن كاترمير كان ناظرا في بعض هذه النسبة إلى ما قاله ابن تغرى بردى. على أنه من الملحوظ أن كلا من أبي المحاسن ثم كاترمير من بعده لم يحاول بيان العوامل التي أدت بالقبيلة التي نميا إليها - على زعمهما - ابن حجر للمجيء إلى بلاد المغرب، ولم يشيرا إلى العصر الذي نزحت فيه إلى تلك المنطقة، وهل جاءتها مع القبائل العربية التي كانت تعيش في مصر أم هاجرت إليها من بلاد الشام أو العراق أو بلاد العرب ذاتها (٦). وكل ما يعتد به كلاهما هو كلمة « حجر ».

« وإذ ساق كاترمير هذا الخبر - بناء على رواية المنهل - فإننا بمناقشة هذ الرواية يتجلى لنا خطؤها، وحسبنا أن نقول أن أبا المحاسن كان حجة في انساب الترك وليس كذلك في انساب العرب، إذ لم يتوفر له حظ كبير فيها وليس بذي القدح المعلى في هذا الميدان ومرجع هذا الخطإ التاريخي عند أبي المحاسن هو خلطه بين قبائل « حَجَرْ » و « حُجْر » و « حَجْر ».

إذ كانت القبيلة الأخيرة وحدها - وهي من بني أسد - وليست قبيلة « حَجَرْ » - هي التي تعيش في بلاد الجريد حول قابس ومن ثم خلط أبو المحاسن بين « حَجَرْ » و

« حَجْر »، فأدى به ذلك إلى نسبة ابن حجر العسقلاني - صاحب الإنباء - إلى قبيلة « حَجْر ».

« ومن ناحية أخرى نرى السيوطي - في ترجمته لصاحب الإنبا - يذهب للقول بأن ابن حجر عربي الأصل، دون أن يسوق على هذا الرأي دليلا قويا - أو شبه قوي - يدعمه ويؤكد صحته، ولعل الذي حمله على سلوك هذا المسلك شدة اعجابه به وعظيم تقديره إياه، وربما بنى السيوطي هذا الزعم على ورود كلمة « الكناني » في سلسلة نسب ابن حجر، وإن لم تنهض في ذاتها دليلا على الوصول به إلى ذلك الأصل، وربما قيل ان ابن حجر نفسه أشار إلى هذا الأصل، غير ان اشارته لم تعد - في كل ما ألف وأملى - مرتين، أولاهما في إجازة أجازها لأحدهم جاء فيها :

من احمد بن علي بن محمد بن محمد بن علي الكناني المحتد وبجد جد أبيه أحمد لُقِّبُوا حجرًا، وقيل بل اسم والد أحمد

وثانيهما إشارته العابرة بأنه قرأ بضعة أسطر بخط أبيه يذكر فيها أنه « كناني » الأصل ولم يعلق ابن حجر على هذه الأسطر بنفي أو إثبات، وفي رأينا أن لو كانت هذه النسبة ترتكز على أساس مدعم قوي لاوردها ابن حجر في مؤلفاته وفتاويه وإجازاته . . (8).

« إذن فما هو أصل ابن حجر ؟ »

نسوق فكرة لانقطع فيها برأي بات، وإنما نعرضها ولعل هناك من يستطيع تبيان الحقيقة وما هي بالتافهة ـ سواء أكان ذلك التبيان بالنفي أو التأييد، تلك الفكرة هي اننا نلمح في أسرة ابن حجر نسبا قريبا لا يمت بصلة إلى أحد الرأيين اللذين جاء بهما أبو المحاسن (٩) ثم من بعده السيوطي (١٠) وهو نسب كردي ربما كان هو الآخر مسلسلا من أصل عربي وللتدليل على ذلك نقول أن السخاوي يذكر أن شيخه ابن حجر رد أصله في كتابه « صفة النبي » إلى جد سماه « احمديل » في قوله : « هو احمد بن علي بن محمد بن محمد بن علي بن احمد بن احمديل » ، وقد لاحظنا أن هذا الاسم ـ وهو احمديل ـ يرد في ترجمة عم ابن حجر واسمه « شعبان بن محمد » وورود هذه النسبة عند ابن حجر نفسه وبقلمه ذاته وعند السخاوي دليل على ان أحد جدود هذه الأسرة كان يسمى « بأحمديل » وهو اسم كردي صريح لأشبهة في كرديته، وليس ابن حجر ـ وهو النسابة الثقة ـ بمن ينتحل لأحد قبيلة ليس له فيها عرق ». (١١)

الغريب هنا أن الأستاذ حسن حبشي الذي يتهم ابن تغري بردي بأنه لا يحسن معرفة القبائل العربية كما يحسن

معرفة القبائل التركية لأنه تركي الأصل، يقبل ـ أي حسن حبشي من هذا التركي نفسه ان يكون مؤرخا لعصره في كل شيء ـ بما في ذلك مصر وغيرها من البلاد العربية، ولا يقبل منه ان يكون مؤرخا لمعاصره واستاذه ابن حجر.

كذلك وقع حبشي في تناقض اخر حين استغرب نسبة ابن حجر إلى قبيلة حجر، محتجا بانه لا يوجد في سلسلة آبائه اسم بربري ؟ فكأنما قبيلة حجر قبيلة بربريّة ! والأغرب من ذلك كله انـه هو نفسه قد قال بعد ذلك وفي نفس السياق : ان « حجر قبيلة عربية لكنها لم تهاجر للمغرب ؟.

ونحن نقول له : كيف تسنى له ان يقطع بذلك ؟ لا سيما وان لقب حجر بفتح الحاء والجيم مازال موجودا إلى اليوم في عديد المدن المغربية، كطرابلس مثلا . . بل وموجود إلى الآن في جزيرة مالطة التي هاجر إليها الآلاف من سكان افريقية زمن الحكم العربي لها.

ثم ما قوله في ان هذا اللقب كان موجودا في القيروان منذ القرن الثالث الهجري، وان احد اعضاء الوفد الأغلبي إلى القسطنطينية والعائد منها مع رسول الروم سنة 294/906 كان يلقب بابن ابي حجر؟ (12).

وعلى احتمال ان قبيلة حجر لم تهاجر هي أو فرع منها إلى افريقية، الا يمكن ان يهاجر منها بعض ابنائها، ومنهم أو اليهم ينحدر او ينسب أحفاد تكون لهم مكانة وشهرة في التاريخ، ويتنقلون من قطر إلى قطر، كما حدث فعلا لكثير من العلماء والمشاهير ؟ وقصة نسب ابن منظور واسرته خير دليل على ذلك (13).

الواقع ان استاذنا حسن حبشي مصمم من بداية نقاشه للمضوع على نفي نسبة ابن حجر.. لا الى قبيلة حجر العربية فقط بل وإلى اية قبيلة عربية اخرى ؟.

فقد ناقش أيضا وفي نفس السياق الجلال السيوطي فيما ذهب اليه من ان ابن حجر عربي من كنانة.

والأغرب من ذلك انه لم يقتنع بالنصوص التي كتبها ابن حجر نفسه منتسبا فيها إلى كنانة (14). فحاول ان يصطنع لها تخريجات وتأويلات تتفق مع ما يريد الوصول اليه.. وهو عدم انتساب ابن حجر اصلا إلى العرب ؟

وبعد جهد عسير وتحميلات شاقة اعلن رأيه أو افتراضه، الذي يعتبره الحل الوحيد المعقول لاصل ابن حجر، وهو أن ابن حجر ينحدر من اصل كردي لوجود صيغة اسم كردي في واحد من جدوده، وهو اسم « احمديل » بمعنى احمد.

ولست ادري ماذا نفعل بعد ذلك بلقب ابن حجر ولقب الكناني وكلاهما عربي صريح ؟

كما ان استاذنا حبشي لم يتوقف عند حقيقة اخرى وهي ان نسبة ابن حجر العربية، لم ينكرها احد من معاصريه ولا من تلاميذه او من اخذ عنهم من الأجيال الموالية ؟

واني شخصيا اعتبر الجهد المضني الذي قام به استاذنا حبشي في اثارة الموضوع برمته، وفي محاولته اثبات كردية ابن حجر هو جهد يستحق التنويه والثناء، لكنه ـ مع الأسف ـ غير مقنع في ادلته ونتائجه. ومن السهل نقض افتراضه فيه بان صيغة « احمديل » كاسم لجده الاعلى، لا تعدوا ان تكون شهرة اجتماعية، أو نوعا من المسايرة للاكراد الذين عاش بينهم هذا الجد وكانوا هم ينادونه بها الفوه من تحوير للاسماء العربية في لغتهم، وقد حدث ذلك باستمرار، حتى في المجتمعات العربية الخالصة (15).

وعلى العكس من ذلك فان الأستاذ حبشي، كان اقرب إلى الاقناع عند مناقشته نسبة ابن حجر إلى قبيلة آل حجر القابسية، باعتبار صحة التفريق القائم بين ثلاث صيغ لثلاث قبائل عربية هي « حَجَر ـ وحُجْر ـ و ـ حَجْر ».

على اني لا أسلم نهائيا بذلك ما لم يأت دليل حاسم في القضية يقنعنا تماما بالأصل الحقيقي ـ مكانيا ـ لا عرقيا لابن حجر.

ذلك اني لا أعتقد مطلقا ان ما قاله ابن تغري بردي عن أصل ابن حجر القابسي، كان اختراعا منه أو اجتهادا في غير محله. بل لابد من أساس أقام عليه رأيه، وإن كان لم يشرحه لنا.

وأراني مضطرا في النهاية إلى التأكيد مرة ثانية على ما ذكرته سابقا من (ان في وجود لقب حجر بافريقية قديما وحديثا دليلا يعارض النفي الذي ذهب إليه استاذنا حبشي).

وفي انتظار ما قد يجد من أدلة أو نصوص تخالف ذلك سيظل ابن حجر منسوبا إلى قابس التي لم تكن قط بلدا عقيما، بل أنجبت العشرات من كبار الاعلام في شتى المعارف والعلوم وفي مختلف العهود والعصور.

تعليقات واحالات

1) انظر ترجمته في الاعلام 1/173 معجم المؤلفين 2/20 ـ معجم المطبوعات 77/81.

2) انظر تقديم حسن حبشي لكتاب ابن حجر «إنباء الغمر . . ». وعن كاترمير كتاب : «المستشرقون» ج 1. ص 184/185.

3) من الرافضين حسن حبشي كما ورد في البحث، ومن المسلمين به : الكتاني في «فهرس الفهارس». ج 1. ص 321 ود. كامل مصطفى الشيبي في كتابه «ديوان الدوبيت» ص 81. و 314.

4) طبع الجزء الأول بالقاهرة 1969 والثاني بها 1971 والثالث 1972 ولم نطلع على الرابع حتى الآن.

5) ليست بلاد الجريد ولا مدينة قابس في الجزائر إذ هما معا جنوب تونس، الأولى غربا والثانية شرقا . . ولكن أستاذنا حبشي لا يعرف جغرافية تونس بله المغرب العربي.

6) هذا غريب جدا من الأستاذ حبشي : وسيأتي في الأصل تعقيب عليها.

7) ليست لدينا دراسات وافية في الموضوع . . ولكن ابن خلدون يشير في تاريخه (ج 6 . ص 165 و 167) إلى (آل حجرى) وإنهم ينسبون لسليم، وقيل هم من بطون كندة . .

8) هذا موقف في منتهى الغرابة، إذ كيف ينفي ورود نسبة (الكناني) في إجازات ابن حجر . . ؟ وقبل سطور ثلاثة فقط من نفيه لها أورد هو نفسه إجازة شعرية لابن حجر تضمنت نسبته إلى كنانة ؟ ! .

9) أي نسبته إلى حجر بجهة قابس.

10) إلى نسبته إلى كنانة التي دل عليها الأستاذ حبشي نفسه بشعر قاله ابن حجر ـ كما أشرنا سابقا.

11) مع ان الأستاذ حبشي قد بدأ فقرته (لاثبات نسبة ابن حجر إلى الكردية) بأنه « يسوق فكرة لا يقطع فيها برأي بات » ؟ فإنه قد انهاها، ليس برأي بات، بل بحكم قاطع زعم استمداده من « ابن حجر » نفسه ؟ وهو في هذه القضية يجمع بين الغرابة في الأسلوب والتناقض في الآراء والحجج . . !

12) راجع عن هذه السفارة وهذا الاسم : البيان المغرب ج 1 . ص 144 . وعن الاسم : رسالة افتتاح الدعوة.
ط ـ بيروت ـ ص 82 و270 .

13) انـظر عن بعض الاعلام التونسيين المنسوبين إلى حجر وما يقربها : تاريخ الدولتين ص 107 و 115 والادلة البينة ص 157 و 171 والعرب في صقلية ص 161.

14) إجازة ابن حجر التي يقول فيها :

« من احمد بن علي بن محمد بن محمد بن علي الكناني المحتد ».

وقد اطلعنا عليها الأستاذ حبشي نفسه - في الأصل المنقول عنه.

15) عندنا في منطقة الجريد - إلى اليوم يغيرون - تدليعا - اسم احمد إلى « بده » ومحمد إلى « حمه ». ولفرقة مسرح الجنوب بقفصة مسرحية ذات نجاح وشهرة شعبية واسعة باسم « حمه الجريدي ». !!

نظرة عامة حول ملتقى أبي لبابة

منذ فجر الاستقلال والنداءات تتوالى للاهتمام بتاريخنا على اختلاف عصوره، واعادة النظر فيه على ضوء المنهج العلمي وفي اطار مجرد من الاغراض المختلفة التي تسربت إليه عبر العصور وحسب أهواء الاخباريين أو الباحثين المعاصرين خدمة لأغراض دينية أو سياسية أو مذهبية . . وحتى استعمارية معروفة .

ولحسن الحظ تكونت في تونس ـ خلال العشرين سنة من الاستقلال ـ نواة طيبة من الجامعيين والباحثين والاثاريين وحتى من المؤرخين، ممن يربطهم بالوطن انتماء صادق وعندهم من الكفاءة ما يمكنهم من دراسة تاريخنا بنظرة جديدة وبمنهج موضوعي بعيد عن الملابسات التي عانى منها تاريخنا ومايزال .

ولا نريد ان نستعرض جميع المبادرات والبحوث والملتقيات التي سبقت . . . وانما يكفي دليلا على أهمية الموضوع وعلى وعينا به وتصدينا له . . هذا الملتقى الذي اعتبره ـ شخصيا ـ خطوة راسخة في الطريق نحو ما نريد [1] .

---

(1) هو ملتقى أبي لبابة، في دورته الأولى، بقابس عام 1978 .

ومن البديهي ان يكون المنطلق لهذه الدورة، وهي الأولى من سلسلة دورات نرجو ان تكون غير محدودة، من البديهي - وقد خصص الملتقى بالاسلام تاريخا وحضارة، واختيرت قابس مقرا دائما لاعماله . . باعتبارها الباب الذي دخلت منه جميع الموجات الاسلامية الى افريقية وما يليها من بلاد المغرب وجنوب اوروبا - من البديهي ان ينطلق الملتقى من اسمه . . اي من أبي لبابة للتعريف، والتثبت من حقيقته التاريخية .

وغير خاف عن الجميع ان الغرض من ذلك لم يكن مجرد عرض للاخبار التي تتعلق بابي لبابة، كما أوردتها المصادر . . . اذ هي معروفة لدى كافة القراء، فضلا عن الباحثين والمؤرخين . . . وانما كان عرضها لنقدها وتمحيصها وتبادل الرأي العلمي حولها وصولا إلى الحقيقة التاريخية، وللتأكد من القضايا التي تثيرها علاقة أبي لبابة بمدينة قابس المزعوم، وفاته ودفنه بها، ما قام به فعلا الأستاذ « محمد المرزوقي » وما جرى حول بحثه من نقاش مثمر مفيد .

ومثل ذلك يقال عن بدايات الفتح التي يعرف جميعنا انه لم يرد فيها ذكر لأبي لبابة . . . وهكذا كان لابد من طرح الأسئلة التالية :

متى جاء أبو لبابة إلى قابس ؟ وكيف مات على أرضها ؟ .

ولماذا غفل عن ذلك الأخباريون ؟ وما الدليل على ان الضريح القائم اليوم يحتوي فعلا على رفاة الصحابي الجليل أبي لبابة ؟ .

ومما زاد الأمر تعقيدا ان اسم ابي لبابة لم يرد في قائمة الصحابة المعروفين الذين دخلوا افريقية . . ولماذا اغفلت ذلك جميع المصادر التي وصلت إلينا؟

لاشك . . ان هذا لا يعني ان « ابو لبابة » لم يوجد قط في حياة الصحابة وفي زمن الرسول، أو انه مجرد اسطورة نسجت لغرض ديني أو مذهبي أو لغاية سياسة أو اقتصادية . .

مهما يكن من أمر فقد انتهى البحث إلى ان أبا لبابة قد وجد فعلا في حياة الرسول وكان له دور مهم في تاريخ الدعوة الاسلامية . . ونزلت آيات قرآنية في حقه. وعاش إلى سنة أربعين من الهجرة . . . وهو مع ذلك موجود في قابس، بضريحه ـ على الأقل ـ المنسوب إليه . . . وذلك ثابت إلى أن يأتي ما يخالفه أو يدعمه بالوثائق المسلمة علميا وتاريخيا.

وانطلق المشاركون في الملتقى خلال جلسات خمس موالية لبحث عمليات الفتح للتعرف ـ عن طريق النصوص والآثار الموثوق بها ـ إلى بدايات الفتح العربي الاسلامي وما يتصل به من أوضاع كانت سائدة في افريقية من النواحي السياسية والعسكرية أو الاقتصادية والاجتماعية، وكذلك بعض الجوانب الدينية والثقافية . . .

ولئن لم يغط الملتقي جميع ما يجب أن يغطيه من قضايا، ولم يقدم الحلول الشافية لكثير من المشاكل،،، فإنه ـ على الأقل ـ قد نجح ـ وإلى حد كبير ـ في إثارة الموضوعات وطرح الأسئلة ونقد كثير من الأمور التي كانت بمثابة الحقائق المسلمة والتي اطمأن إليها المؤرخون أو الاخباريون طوال عصور متلاحقة.

وفي طليعة الدراسات والقضايا كان اسم مدينة قابس، وموقعها في طريق الفتح، ومكانتها التاريخية والعسكرية السابقة للاسلام «بحث محمد فنطر».

ثم هل كانت للعرب استراتيجية مدروسة ومخططة سلفا لغزو افريقية والمغرب . . . أم أنهم تسربوا من مصر إلى برقة ثم إلى طرابلس حيث وجدوا أنفسهم على أبواب افريقية . . . فكانت أوضاعها المنقسمة على نفسها هي التي شجعتهم بل أغرتهم بالاقتحام والمثابرة . . . وبالتالي حققت لهم النجاح في الاستيلاء الكامل عليها ؟ !

ومن المهم أن نتساءل . . لماذا سلك العرب ـ في فتح افريقية ـ الطرق الصحراوية وأوغلوا في عمق الصحراء إلى حدود فزان وما حولها ؟ بينما كان الفاتحون الآخرون ـ السابقين واللاحقين ـ يسلكون طريق السواحل ؟!

ثم ما هو موقف البربر ـ سكان البلاد من العرب الغزاة ؟ !

ولماذا كانت العلاقات غامضة أو مسالمة - بين العرب والبربر - من برقة إلى سبيطلة . . . وخاصة خلال فترات الفتح الأولى وعلى التحديد إلى سنة 62 للهجرة ؟ ثم تبدل الموقف بعد هذا التاريخ لا سيما حين توغل العرب في المناطق ذات الكثافة السكانية من البربر أي داخل المغرب الأوسط والأقصى . . .

وبالاضافة إلى ذلك . . . . أثيرت قضايا هامة أخرى لها علاقة مباشرة بتاريخ الفتح وما تبعه من تطور في الأوضاع وفي نظام الحكم بافريقية، وخاصة في عهد عقبة بن نافع وامتدادا إلى نهاية عهد حسان بن نعمان، وفي الجانب الديني والتبشيري إلى نهاية عهد الولاة سنة 184 هجريا.

وفي هذا النطاق كان التركيز بالخصوص على موضوعات أساسية لا يمكن فهم عمليات الفتح بدون دراستها والتعمق في معطياتها وعواملها. من ذلك - مثلا - المراكز العسكرية البيزنطية بافريقية « دراسة رشيد بورويبة » والوضع الحقيقي لمدى العمران بافريقية - زمن الفتح - « دراسة عمار المحجوبي » ومن المسؤول عن الخراب الذي حدث بافريقية قبل القرن - الخامس هجريا - والحادي عشر ميلاديا. ؟ هل هو من صنع أحداث سابقة عن العرب ؟ أم اقترن بدخولهم، ونتيجة لفتوحاتهم ؟ أم حدث بعد ذلك ؟ أم هو أطراف سبعثرة بين مختلف العهود ؟

وكـذلـك جرى الكشف عن ظروف تأسيس القيروان، ونقـد الأسـطورة العـالقـة بها في المصـادر القديمة « دراسة العروسي المطوي ».

وقد كان النقاش أكثر ثراء ونتائج حول هذه القضية.

ولم يترك الملتقى موضوعات أخرى ذات علاقة بالعنصر البشري . . . ضمن موجات الفتح العربي الاسلامي فتم في هذا النطاق تقديم موضوعات عن « العنصر الفارسي ودوره في جيوش الفتح » وما تلاه من علاقات بشرية وغيرها بين افريقية وبلاد فارس « دراسة علي الشابي ».

وكذلك اسلوب معاملة المسلمين للأسرى « دراسة توفيق بن عامر » . . .

وعلاقات العرب بالبربر زمن الفتح، وهل كانت كما أمر الاسلام ونصت تعاليمه . . . أم حدثت فيها تجاوزات ظالمة وجارحة لكرامة البربر أو لحقوقهم وانسانيتهم؟ ممـا حملهم على الثورة والمقاومة للاسلام ثم للعرب باسم الاسلام تحقيقا للعدالة والمساواة التي جاء بها الدين نفسه.

وخـلال فترات الفتـح وعهـد الـولاة . . . تثار قضية الديانات السائدة، وخاصة وضع المسيحيين في افريقية بعد ان استقر العرب وانتصر الدين الجديد . . . وقد كان بحث علي الشنوفي شاملا في هذه الناحية من سنة 27 وحتى نهاية عهد الولاة عام 184 هجريا.

ترى ما هي الجهود التي بذلها العرب - الحاكمون الجدد للبلاد - كي ينتشر الاسلام بين البربر ويسود ليصبح آخر الأمر دينهم القوي الذي به يتمسكون ويعتزّون وعنه يدافعون ويذودون ! ! !

هل كان للبعثات التعليمية الأربعة « بحث الحبيب الهيلة » دور رئيسي في ذلك ؟ وهل دور هذه البعثات كان كافيا وحده لتحقيق ما تحقق فعلا ؟ وكيف كان المبشرون ينشرون الدين الجديد ؟ وما هي لغة التفاهم والمخاطبة ؟

ورغم ان التوازن كان غير متجانس أو متكامل بين الموضوعات والبحوث من حيث المنهج وأسلوب البحث والعرض وحتى المناقشات والتدخلات وعلى الأخص بين الامتداد الزمني لكل موضوع وبين الامتداد الجغرافي والعلاقات العضوية بالمحور الذي يقدم البحث في دائرته فضلا عن النطاق العام المحدد لمجال الدورة الأولى للملتقى . . . رغم كل ذلك فإن جميع الدراسات قد اسهمت - كل في ميدانه - بإضاءة جديدة لهذه الفترة الموغلة في القدم، والتي كانت الحدّ الفاصل بين حضارات وعصور وأمم وأديان ودول متعددة .

ويزداد تقديرنا للباحثين جميعا ولبحوثهم في هذا الملتقى

بقـدر ما نعلم ـ ونحن نعلم فعلا ـ مدى النقص والفقر في المصادر المتعلقة بهذه المرحلة من تاريخ الاسلام بهذه البلاد وبالمغرب العربي كله.

وإننا نأمل أن يكون الملتقى الثاني القادم مواصلة وتكميلا لهذه البـدايـة الـطيبـة. وان رحلة بألف ميل تبـدأ بخـطوة أولى . . . وقد بدأناها وأنجزت على أكمل وجه فإلى الخطوة التالية . . . .(1).

---

(1) نشرت في جريدة «بلادي» س 2. عدد 3 ماي 1978 وترجمت للفرنسية ونشرت بجريدة «لابريس» عدد 11/5/1978.

حول التراث العربي بتونس
في مائة عام (*)

تمهيد :

في تاريخ تونس بل والمغرب العربي تراث حافل بالابتكار والنبوغ مليء بشتى ألوان المعرفة ومختلف الرجال الذين صبوا عبقريتهم وحياتهم في مؤلفات فائقة في العلم والفلسفة وفي التاريخ والأدب على اختلاف ضرويه وألوانه.

وكثيرون هم الذين يجهلون تماما الجهود العظيمة والمساهمات الكبيرة التي بذلها أبناء المغرب في حقول الحضارة الاسلامية والثقافة العربية، منذ ظهر الاسلام كعامل حاسم في حياة وتفكير شعوب المغرب العربي، هذا فضلا عن جهودهم في تراث وحضارات ما قبل الاسلام.

وجهود ابناء الشمال الافريقي هذه لا تقل أهمية ولا مكانة أو قيمة عن جهود أبناء الشرق العربي سواء في الفلسفة أو في الأدب أو في غيرهما من حقول المعرفة الانسانية. غير ان أبناء الشرق المعاصرين قد نهضوا باعباء الواجب نحو تراثهم الفكري والحضاري ونحو الرجال الجهيرين من اسلافهم ممن اسهموا في بناء التراث وتقدم الحضارة، ثم لم يقفوا عند حد

جهودهم الخاصة بل أضافوا إليها ما ترجموه من جهود الغربيين وخاصة المستشرقين الذين لم يبذل جيل من أجيال العرب الأحياء ما بذلوه في احياء التراث العربي الاسلامي وتدعيمه بالدراسات والبحوث المتصلة المستوعبة لكل جانب وحقل من جوانب وحقول الثقافة والحضارة العربية الاسلامية.

وبالطبع فان جهود المستشرقين لم تكن خاصة بالجانب الشرقي من تراث العرب بل كانت شاملة تراثهم في المغرب العربي وصقلية والأندلس باعتبارهما امتدادا للثقافة والحضارة العربية الاسلامية في عصور طويلة معروفة.

ولا أبالغ ان قلت: ان جهود المستشرقين الفرنسيين والطليان والاسبان تكاد تنحصر في الجناح الغربي من العالم العربي بما كان يتبعه قديما من الجزر والضفاف الأوروبية، وذلك لاسباب تاريخية وجغرافية وسياسية معلومة.

وقد اعتنت المؤسسات التجارية والثقافية في الشرق كما اعتنى الأشخاص المثقفون بجهود المستشرقين على اختلاف لغاتهم واتجاهاتهم، فنقلوا إلى اللغة العربية ذخائر كثيرة من جهود المستشرقين خاصة منها ما كتبه الانقليز والفرنسيون والألمان، وبدرجة اقل ما كتبه الاسبان والطليان.

غير ان ما نقل من جهود المستشرقين قد كان اكثره، اما عاما بالحضارة والثقافة الاسلامية العربية او خاصة بجانب من جوانبها في الشرق. وباستثناء عدد قليل من الكتب والمترجمين المعنيين بتراث المغرب العربي، مثل الأستاذ محمد عبد الله عنان والدكتور حسين مؤنس والدكتور احسان عباس . . . فان معظم الكتب المترجمة ليست لها علاقة بتراث المغرب العربي وتاريخه أو لها علاقة عامة ذات نطاق ضيق محدود.

ومما يلاحظ هنا ان كثيرا من الكتب المترجمة في الشرق ـ لاسيما تلك التي يتولاها مترجمون محترفون ـ تأتي فيها الحقائق مشوهة أو مبتورة أو محرفة، وقلما يتفطن لها المترجم المشرقي لأن معلوماته وخبرته بتاريخ المغرب وجغرافيته وتراثه ورجاله محدودة جدا.

وما يقال عن الكتب المترجمة يقال أيضا عن الكتب المؤلفة في الشرق حول تاريخنا وثقافتنا واعلامنا في كل حقل وفي كل ميدان. فكثير من هذه الكتب محشو بالاخطاء والتشويه، ومملوء بالاحكام المرتجلة والأراء المخطئة. ولئن كان البعض تعوزه البضاعة والخبرة اللازمة لموضوعه ولا يستند إلى مراجع ومصادر كافية، فان البعض الآخر تتوفر لديه ـ بحكم موضوعه او تخصصه ـ كل الامكانيات، ومع ذلك فهو يميل

إلى السرعة والارتجال اكثر من ميله إلى العقل والعلم وامانة البحث والدرس.

والواقع اننا بقدر ما نعتب على هؤلاء عدم تحريهم للحقائق وارتجال الآراء والأحكام، وميلهم مع الهوى احيانا، بقدر ما نلوم انفسنا ـ نحن ابناء هذه البلاد ـ لما نحن عليه من تقاعس واهمال وعزوف عن البحث والتأليف، لاظهار محاسن ماضينا وذخائره وكنوزه، وما كان فيه من اعلام افذاذ في كل فن وفي كل علم.

نعم. لقد بذلنا جهودا كثيرة، ومحاولات عديدة منذ منتصف القرن الماضي إلى اليوم.

ولكننا حين نستعرض جهود اقطارنا المغربية الأربعة، في ميدان نشر التراث والترجمة، ونقارن بين ما انجزناه فعلا وبين ما نطمح إليه، او بينها وبين امكانياتنا الحقيقية، او بينها وبين ما يملأ مكتباتنا المغربية والمكتبات العالمية من آلاف مؤلفة من كتب التراث او كتب ألفها الأجانب عنا وعن تاريخنا وحضارتنا وتراثنا أيضا . . . ندرك أننا مازلنا بعيدين جدا عن أهدافنا المثلى وعن الغايات الواجب علينا تحقيقها.

لاشك . . . ان عهد الاحتلال الأجنبي لأقطارنا، وما كان يزخر به من اضطهاد وتنكيل وتجهيل، ومن محاولات

متصلة لمسخ شخصيتنا وصرف شبابنا ومثقفينا عن تراثهم وماضيهم، بل وحتى عن لغتهم . . قد كان ذا اثر جهنمي في تخريب كل الجهود وتثبيط كل الهمم وانصراف كل الطاقات إلى المقاومة وتحرير الوطن، مما جعل النهضة الفكرية ـ لاسيما في ميدان نشر التراث، ودراسته ـ امرا ثانويا يتحدث عنه الكثيرون لبعث الشعور القومي وزرع الاحساس الوطني اكثر من اي شيء آخر.

إذا كان هذا كله صحيحا، وكانت له بالأمس ظروفه القاهرة، فان عهد الاستقلال والسيادة الوطنية، يتيح لنا اليوم الفرصة كاملة في كل أقطار المغرب العربي، لا للاهتمام بتراثنا واحيائه فقط، بل ولترجمة نفائس الكتب التي كتبت عن بلادنا وتاريخنا وتراثنا بالخصوص

لقد جمعت ـ خلال السنوات القليلة الماضية ـ ما يقرب من مائة كتاب تناول فيها أصحابها الفيلسوف العظيم عبد الرحمن بن خلدون، فلم يكن في هذه المائة كتاب سوى ثلاثة او أربعة كتيبات مغربية، عن هذا الرجل الذي ما فتح مغربى فمه الا افتخر به.

وجمعت مثل هذا العدد من كتب ودراسات عن شاعرنا الذي نكاد لا نفتخر بسواه، اعني أبو القاسم الشابي، فلم يكن بينها أيضا سوى نسبة قليلة من الكتب المغربية.

أما إذا تجاوزنا هذا الستار العاجي الذي ضربناه حول عقولنا باسمى الشابي وابن خلدون، فاننا لا نجد اي شيء يذكر لاسيما فيما يتعلق بتراثنا واعلامنا السالفين.

والحق انه لولا جهود عدد من الرواد النشيطين الذين قاموا - اعتمادا على امكانياتهم الخاصة - بجهود عظيمة للغاية، كل في قطره وحسب ظروفه، لولا جهود هؤلاء الرواد، لما كان هناك شيء ذو اهمية على الاطلاق.

ويطيب لي هنا، ان انوه بهؤلاء الرواد بل باهم الأسماء التي جاهدت جهاد الأبطال من اجل احياء امجادنا العلمية وبعث كنوزها، ونشر ذخائرها.

وفي طليعة هؤلاء البحاثة العلامة الأستاذ عبد الله كنون، والمرحوم الدكتور محمد بن أبي شنب، والمرحوم العلامة حسن حسني عبد الوهاب، والأستاذ الأديب علي مصطفى المصراتي (1)

فهؤلاء بالذات قد قدموا جليل الخدمات وابرزوا النبوغ المغربي في نفائس المخطوطات التي نشروها والدراسات القيمة التي كتبوها عن تراثنا وتاريخنا واعلامه الفائقين.

ولئن كان ابن أبي شنب غير متقيد بتراث الجزائر وحدها ولا بتراث المغاربة دون سواه، فانه قد ترك من الآثار الهامة

والمنشورات العالية ما كان به رائدا ومستحقا لكل تقدير واكبار، وهو إلى ذلك قد تميز عن رفاقه بكونه اضاف إلى جهوده العربية الشاملة جهودا هائلة اخرى، وهي تعريف المستشرقين والقراء الغربيين عامة، بتراث العرب، خاصة منهم المغاربة، عن طريق الفرنسية التي نقل إليها كتبا كثيرة من تراثنا القديم.

والواقع ان ميدان التراث في حياتنا العلمية والأدبية، يشكو قلة الأفراد المتخصصين فيه والمنصرفين بجهودهم إليه، فبينما نجد الشعراء والأدباء والفقهاء والعلماء بالعشرات، نكاد لا نجد - في ميدان التراث - الا افرادا يعدون باصابع اليد الواحدة في كل قطر من أقطارنا المغربية، وهذا هو العامل المباشر في قلة انتاج المغاربة في هذا الحقل، مع ان اكثر من نصف كتب التراث العربي في العالم كله هو انتاج مغربي، سواء تم انتاجه في ليبيا أو تونس أو الجزائر أو المغرب الأقصى أو الأندلس وصقليّة في عصورهما الاسلامية.

ولست ممن يدعي الاختصاص أو الدراية بهذا الميدان، ولكن لَدَيَّ بعض الملاحظات والمعلومات الخاصة بوضعية تراثنا في تونس، اردت ان انقلها إلى حضراتكم، لعل فيها ما يفيد، وعلى الاخص لعلها تحرك الهمم إلى الالتفات الجدي نحو تراثنا والعناية به وتوجيه انظار المثقفين والعلماء والمسؤولين عن الثقافة والتربية في اقطارنا نحوه.

وقبل التوجه إلى هؤلاء جميعا ـ وإلى حضراتكم ـ ببعض المقترحات أو التوصيات، أرى لزاما عليّ ان اقدم لمحة خاطفة ونظرة عامة حول نشاط تونس وجهودها في ميدان احياء التراث ونشره والعناية به، قديما وحديثا، منذ ظهرت فيها الطباعة العربية إلى اليوم.

قامت في تونس محاولات كثيرة، في الماضي والحاضر، لاحياء التراث المغربي العربي وتحقيقه ونشره، بعض هذه المحاولات كان رسميا، تحت اشراف الدولة أو برعايتها، وبعض آخر كان محض جهود فردية قام بها علماء وأدباء . . لئن كان اكثرهم غير متخصص ولا متدرب على طرق التحقيق والنشر الحديثة، فان غيرتهم الوطنية ونزعتهم العلمية قد كانت الحافز الأعظم لهم على انجاز ما قاموا به من جهود.

الرائد الأول

وانه لواجب علينا ـ قبل كل شيء ـ ان نسجل هنا اسماء الرواد الأولين منهم، تشريفا لهذه الكلمة، وتخليدا لذكرهم.

واقدمهم دون جدال العلامة البحاثة والمصلح الجريء سليمان الحرائري، الذي كان أول تونسي استعمل المطبعة

العـربية الحجـرية بتونس منذ عام 1849 مستعينا بصديقه وتلميذه الأب المستشرق فرنسوا بورقاد (F. Bourgade) فكان كتاب « **مسامرات قرطاجنة** » أول كتاب حديث طبع باللغة العربية في تونس، حسبما نعلم. ثم نشر الحرائري بعد ذلك كتبا عديدة بالمطبعة العادية، اثناء هجرته واقامته بباريس، نذكـر منها ما له علاقة بالتراث، حيث نشر بتحقيقه كتاب « **قلائد العقيان** » للفتح بن خاقان الأندلسي، ومقامات احمد بن المعظم وسيرة عنترة العبسي.

جماعة الرائد

وبينما كان سليمان الحرائري يواصل عمله كاستاذ في معهد اللغات الشرقية بباريس حتى وفاته بها عام 1877 كان علماء آخرون يواصلون في تونس تحت اشراف الدولة التونسية، وفي مطبعتهـا الرسمية ـ مطبعة الرائد التونسي التي احدثت عام 1860 ـ يواصلون طبع الكتب الحديثة وكتب التراث في وقت واحد، بهمة لا تكل وعزيمة لا تَنِي.

من هؤلاء الاعـلام نذكر، الشيخ محمد السنوسي الذي كان اول مدير تونسي لهذه المـطبعـة، والشاعر محمود قبادو، والشيخ محمـد بيرم الخامس، والشيخ محمد البشير التواتي، والعلامة سالم بو حاجب.

وقد استمر نشاط هذه الحركة المباركة في حماسة وانتظام وصعود، حتى نكبت البلاد بالاحتلال الفرنسي يوم 12 ماي 1881 فاختل سيرها واخذت في التراجع حتى توقفت تماما بنهاية العقد الأول من القرن الحالي. . .

وخلال هذه المدة تم نشر عشرات الكتب القديمة والحديثة، على اختلاف احجامها وموضوعاتها، ورغم ان طرق النشر والتحقيق الدقيقة العصرية كانت مفقودة في اكثرها، الا انها كانت طلائع نهضة جبارة لو أتيح لها ان تتواصل وتتفاعل مع مظاهر التقدم العلمي الحديث لغيرت كثيرا من مظاهر الحياة العلمية والفكرية في تونس.

على اننا نؤكد بان عشرات الكتب التي انجزتها هذه الحركة المباركة، قد كانت تظهر فيها عناية بالغة من الجد في العلم، والتثبت في المعلومات وتصحيح النص إلى اقصى حد متيسر للمشرفين عليها، وقد كان هؤلاء وغيرهم طليعة رائدة ـ من علماء وأدباء ـ مثلوا بحق نهضة تونس في القرن التاسع عشر احسن تمثيل.

ومما يلاحظ هنا ان مطبعة الرائد التونسي، قد كان لها في تونس نفس الدور ـ تقريبا ـ الذي كان لمطبعة بولاق في مصر.

ومن المصـادفـات الـطريفة التي حدثت لكل من هاتين المطبعتين، ان كلا منهما قد ساهم في نشأتها وحركتها العلمية عالم أديب من علماء البلد الآخر :

فقـد ساهمت تونس في حركـة النشر لمطبعة بولاق باحد ابنائها من العلماء الأفذاذ وهو الشيخ **محمد بن عمر التونسي** الذي كان من ابرز علماء عصر محمد علي، ومن كبار المساهمين في منشورات مطبعة بولاق، ترجمة وتصحيحا وتأليفا (2).

كذلك كان احد ابناء مصر، ومن أدبائها وعلمائها البارزين في القرن الماضي، من بين المشرفين والمساهمين في نشاط مطبعة الرائد التونسي، وخاصة في تحرير جريدة الرائد، وهو الشيخ **حمزة فتح الله** (3).

ونعـود إلى منشـورات مطبعـة الرائد التونسي فنذكر، باننا نستطيع ان نبوبها الى الأبواب الكبرى التالية :

أولا ـ كتـب دراسية، أو مدرسية ـ للتعليمـين المـدني والعسكـري، فمن النـوع الأول كتـاب، متن الآجرومية، ومتن ابن عاشر، وعـدة شروح على الآجـرومية، منها شرح خالد الازهري، وشرح الماكودي، ومختصر الدر الثمين للشيخ ميارة، وحـاشية على القطر وشرح الأربعين النووية، ومنهج السالك إلى الفية ابن مالك للشيخ الأشموني، إلى غير ذلك من كتب سدت حاجة التعليم المدني حسب برامج ذلك العصر.

وأما في التعليم العسكري، حيث كانت مدرسة باردو الحربية تشرف على اكبر حركة في الترجمة والتأليف العسكري العلمي حدثت بتونس حتى الآن، فقد تم طبع كتب كثيرة نذكر منها بالخصوص : كتاب « كنزفنون الضباط الصغار » لأحمد المورالي، وكتاب « ضباط عسكر التريس » و « طابور عسكر » له أيضا.

ثانيا ـ كتب في الفقه والحديث والعقائد : ونلاحظ سلفا ان بعض هذه الكتب كان مقررا أيضا للتعليم في الزيتونة والمدرسة الصادقية، فمما طبع خصيصا للصادقية، كتاب عقيدة الامام السيوطي، ومجموعة الأحاديث القضاعية. والمكودي على الآجرومية، وشرح صغرى الصغرى للسنوسي الحسني. ومما طبع للزيتونة ولعموم القراء : كتاب موطا الامام مالك، وشرح الأربعين النووية، وحاشية على قرة العين لشرح ورقات امام الحرمين، مع الشرح المحشى للشيخ الحطاب.

ثالثا ـ كتب في اللغة والأدب ـ شعرا ونثرا، وهي أيضا نوعان حديثة لمعاصرين. وقديمة من التراث، ونكتفي بذكر بعض أسماء النوع الثاني فمن ذلك ديوان حسان بن ثابت، وكتاب خاص الخاص لأبي منصور الثعالبي، والجزء الأول من عمدة ابن رشيق، وقصيدة بانت سعاد.

رابعا ـ كتب تاريخية، ونقتصر فيها على كتب التراث : ومنها كتاب المؤنس في اخبار افريقية وتونس لابن أبي دينار، والجزء الأول من الحلل السندسية في الأخبار التونسية للشيخ الوزير السراج، وتاريخ الدولتين للزركشي.

خامسا ـ كتب في السياسة والاصلاح والسلوك، وسياسة الملك، ومعظم هذه الكتب حديثة، الا ان بعضها كان من التراث، ككتاب « واسطة السلوك في سياسة الملوك » للأمير موسى أبي حمو الزياني، و« سلوان المطاع في عدوان الاتباع » لابن ظفر الصقلي.

سادسا ـ كتب في الجغرافيا والفلك والتقاويم، ومعظم هذه الكتب حديثة، وهي كثيرة مثل النزهة الخيرية لحسن لازغلي، والواسطة إلى معرفة مالطة، وكشف المخبأ عن فنون أوروبا وهما لأحمد فارس الشدياق، (4)، ثم اطلس في الجغرافيا لمحمد بن حميدة، والجوهر المرتب في العمل بالربع المجيب للشيخ محمد المكي بن عزوز وهو في الفلك، ومن كتب الفلك القديمة كتاب المطلع في الفلك للشيخ محمد بن سعيد السوسي ت. 1040 هـ.

سابعا ـ كتب في التصوف، ومن قديمها كتاب « مناقب الائمة الأربعة » للشيخ الحريفيش والشعراني ومناقب احمد بن

عروس، هذا فضلا عن مجموعات القوانين الاصلاحية المختلفة، وابرزها واهمها باطلاق قانون « **عهد الامان** » الذي هو اول قانون دستوري صدر في العالم العربي بل والاسلامي، وقد كان ضمن مجموعة قوانين اخرى اول ما طبعته مطبعة الرائد من كتب، وكان صدوره يوم العشرين من محرم عام 1274 هـ. الموافق لليوم العاشر من شهر سبتمبر 1857 م. وتم طبعه عام 1277 هـ. 1860 م. ويحتوي على مائة واربعة عشر فصلا أو بندا (5)

ومعلوم انه انبثق عن هذا الدستور مجلس نيابي سمي (بمجلس الشورى الأكبر) وقد تولت مطبعة الرائد طبع محاضر جلساته الأولى في مجلد عام 1279 هـ. 1862 م. (6).

عهد الاستعمار

في هذا العهد تغيرت الأمور تماما منذ زحف الاحتلال على تونس يوم 12 ماي 1881، وفرض على البلاد كابوسه وطغيانه طيلة ثلاثة ارباع قرن، وقد اصيبت خلالها جهود الدولة التونسية، ومواكب نهضتنا الفكرية بالخصوص، أصيبت بانتكاسة كبيرة، فاحتجبت بالتدريج، وفق مخطط استعماري، جهود الدولة ورعايتها للحركة العلمية، وخاصة في ميدان الطبع والنشر واحياء التراث، لاسيما وان مطبعة

الرائد قد كانت هي المطبعة العربية الوحيدة بتونس حتى عام 1888، حين ظهرت جريدة الحاضرة وكونت لنفسها مطبعة خاصة بعد تجارب طبعها في مطبعة الرائد وفي غيرها.

وبعد انقطاع النشاط الرسمي في ميدان النشر واحياء التراث حلت محله جهود العلماء والأدباء الخاصة، التي تعاقبت دون كلل وفي تقدم مستمر رغم قوانين الاستعمار الجائرة وعراقيله المثبطة، حتى طلع النور بفجر الاستقلال يوم 20 مارس 1956.

وفي خلال هذا الزمن الطويل من الحكم الأجنبي، استطاعت جهود المناضلين والعاملين باخلاص في حقل الطبع والتأليف، نشر مئات من الكتب المختلفة كما ضحى الكثيرون في سبيل تحقيق نهضة الفكر والثقافة بتونس سواء عن طريق الصحافة أو النشر أو التعليم.

وهكذا زاد عدد المطابع العربية وارتفع مستواها الفنى، كما اقتحم ميدان النشر بالخصوص أصحاب المكتبات التجارية والصحف الوطنية، يحدو الجميع الروح العلمية والغيرة الوطنية، دون اهتمام بالجانب التجاري أو السعي وراء الربح.

ويمكننا ان نصنف العاملين في ميدان نشر الكتاب بتونس خلال فترة الاحتلال الأجنبي إلى :

أولا ـ الحكومة .

ثانيا ـ أصحاب المكتبات والناشرون الهواة .

ثالثا ـ اصحاب المطابع والصحف .

رابعا ـ العلماء والأدباء الذين نشروا كتبهم على حسابهم الخاص .

أولا : الحكومة

فاما الحكومة ، فان نشاط المطبعة الرسمية قد انقطع أو كاد منذ نهاية العقد الأول من القرن الحالي ، واقتصرت على طبع الرائد التونسي الذي انقطع هو الآخر عن نشر ما كان ينشره في عهد نشأته الأولى من مقالات وقصائد واخبار، وأصبح جريدة رسمية خاصة بالقوانين والأوامر والبلاغات الرسمية ، كما ازدوجت لغته منذ عام 1883 فاصبح يصدر في طبعتين عربية وفرنسية .

ومعظم الكتب التي طبعتها مطبعة الرائد في هذا العهد قد كانت على حساب مؤلفيها أو ناشريها الخواص .

وقد حاول بعض المستشرقين ـ وهو الأستاذ وليم مرسى ـ الاعتناء بالمخطوطات ونشرها، فدعا إلى تكوين لجنة تعنى بالتراث التونسي خاصة، فتكونت بالفعل عام 1923 « اللجنة التونسية لنشر المخطوطات العربية » وضمت سبعة افراد برئاسته، وكان من ابرز اعضائها العلامة المرحوم حسن حسني عبد الوهاب وقد اختارت هذه اللجنة عشرين مخطوطا لتعمل على تحقيقها ونشرها تحت اشراف ادارة العلوم والمعارف في ذلك العهد. غير ان المشروع بقي يتعثر، ولم يطبع منه سوى ثلاثة كتب احدها « آداب المعلمين » لمحمد بن سحنون وقد حققه ونشره على حسابه الخاص العلامة حسن حسنى عبد الوهاب (7)، وطبع عام 1931 اما أعضاء اللجنة الآخرون فلم ينجزوا سوى كتابين هما : « رحلة التجاني » و « تخريج الدلالات السمعية » ولكن طبعهما وتحقيقهما واخراجهما كان على حالة مزرية، وفي غاية النقص والخلل، فحجبا عن الأنظار ولم يقع عرضهما للبيع أبدا.

ثانيا : الناشرون الهواة

أما النوع الثاني، اي اصحاب المكتبات والناشرون الهواة، فمن أشهرهم اسما واكثرهم غيرة ونشاطا الأديب المرحوم الأستاذ (زين العابدين السنوسي. الذي أسس عددا

من الصحف والمجلات وانشأ مطبعة ودارا للنشر تحت اسم « دار العرب » ويليه نشاطا وغيرة السيد الجيلاني الفلاح ثم السادة : صالح العسلي صاحب المكتبة العتيقة، ومحمد الأمين صاحب المكتبة العلمية، والحاج محمد الثميني صاحب مكتبة الاستقامة.

ولئن كانت جهود زين العابدين السنوسي متجهة اكثر ما يكون إلى الانتاج الحديث حيث نشر - فيما نشره - ديوان مصطفى آغة وديوان الشاذلي خزنة دار، وكتاب « العمال التونسيون وظهور الحركة النقابية » للطاهر الحداد، وكتاب « الخيال الشعري عند العرب » لأبي القاسم الشابي، في طبعته الأولى عام 1929 ، فان جهود معاصريه الآخرين، قد كان فيها اهتمام خاص بكتب التراث، وان لم تخل جهود زين العابدين من مساهمة في احياء التراث، فقد نشر كتيبا صغيرا عن الصيام لابن رشد، وتولى طبع بعض كتب التراث لحساب غيره في مطبعته، مثل كتاب « ابن سحنون » السالف الذكر، وكتاب « تاريخ الدولة الحفصية لابن الشماع ».

ونكتفي هنا بالنسبة للناشرين الآخرين بذكر بعض كتب التراث التي تولى نشرها محمد الأمين الكتبي : وفي مقدمتها كتاب « لباب اللباب » لابن راشد القفصي »، وكتاب « الهبة والعطا في شرح عقيدة الوسطى » لأبي اسحاق

الأنـدلسي، و « القـوانـين الفقهية » لابن جزى، و «تنقيح الفصول في الأصول » للقرافي، و « ذيل بشائر أهل الايمان » في تراجم العلماء التونسيين، لحسين خوجة.

ثالثا : المطابع والصحف

أمـا أصحـاب المطابع، فنكتفي بذكر المطبعة التونسية، ومـطبعـة التقـدم، ومـطبعة النهضة واهم هذه المطابع دون ريب، هي المطبعة التونسية التي قامت بدور عظيم للغاية في طبع الكتب والصحف طيلة نصف قرن، وحلت بذلك محل مطبعــة الــرائـد، ومن اهم مطبـوعـاتها في باب الـتراث العربي : كتاب « معالم الايمان في معرفة اهل القيروان » لعبد الرحمن الدباغ وهويقع في اربعة اجزاء، و « عنوان الأريب عما نشأ في تونس من عالم أديب » للشيخ محمد النيفر، « ومعالم التـوحيد في القديم والجديد » لمحمد بن خوجة، و « شهيرات التـونسيات » لحسن حسني عبـد الوهاب، والكتب الثلاثة الأخيرة لمؤلفين حديثين، غير ان موضوعها من صميم تراثنا وتاريخنا الثقافي القديم.

أمـا مطبعـة التقدم فقد كان يديرها الصحفي والمناضل الوطني المرحوم البشير الفورتي، الذي تولى طبع وتصحيح

كتاب « الحلل الموشية في الأخبار المراكشية » وقد نسب خطأ إلى لسان الدين ابن الخطيب.

ونعود إلى الصحف والدوريات، فنذكر ان اكثرها اهتماما وعناية بالتراث، هي صحف « الحاضرة » و «الوزير » و « الزمان » ثم مجلات « البدر » و« الفجر » و« العالم الأدبي » و « المباحث » و « الثريا » . . ففي كثير من اعداد هذه الدوريات مسلسلات متنوعة، بعضها مخطوطات محققة، وبعضها الآخر دراسات مدققة تتصل بتاريخنا السياسي أو الثقافي بوجه عام. ولو استخرجت هذه المسلسلات اليوم واعيد طبعها مستقلة، لكونت عشرات الكتب. وقد قمت عام 1961 بتجربة ناجحة فاشرفت على جمع مسلسلة (علي الدوعاجي) « جولة بين حانات البحر المتوسط » و « مذكرات منفى » لمحمود بيرم التونسي، وتولت نشرهما كتابين الشركة القومية للنشر والتوزيع.

وهذا بالضبط ما كانت تقوم به مجلاتنا وجرائدنا القديمة، ومن هذا القبيل القسم الخاص من جغرافية افريقية والأندلس، الذي نشرته مجلة البدر تباعا ثم فصلته في كتاب مستقل، وقد استخرجه العلامة حسن حسني عبد الوهاب من كتاب « مسالك الأبصار » للعمري وعلق عليه تعليقات ضافية.

كذلك فعلت جريدة « النديم » في كتاب « **قرطاجنة في اربعة عصور** » للأستاذ أحمد توفيق المدني، ومثل هذا فعلته مجلة المباحث بكتاب « ثورة الفكر أو مشكلة المعرفة عند الغزالي، للزعيم المرحوم الأستاذ علي البلهوان الذي نشر كثيرا من فصوله في المباحث ثم تولت هي طبعه في كتاب مستقل، فكان باكورة منشوراتها.

ومن المفيد ان نذكر هنا، ان هذه المجلة قد فتحت صفحاتها لاقلام المغاربة جميعا، مثلها في هذا مثل كل الصحف التونسية السابقة واللاحقة، الا انها قد تميزت عن غيرها بشيء جديد، وهو رصدها جوائز مالية سنوية للكتاب والباحثين في المغرب العربي، وفعلا فان اولى جوائزها قد كانت من نصيب مؤلف من المغرب الأقصى هو الأستاذ محمد الرشيد ملين عن كتابه « **عصر المنصور الموحدي** »، فحبذا ان تتجدد مثل هذه المشاريع والمبادرات التي تهدف الى تحقيق الوحدة الفكرية والثقافية بين أقطار وأبناء المغرب العربي، بل وان تكون على نطاق اوسع واعمق، تمهيدا وتدعيما لبناء الوحدة المغربية الشاملة.

رابعا : العلماء والأدباء

وننهي هذه الجولة حول تراثنا في تونس بالحديث عن نشاط بعض العلماء والأدباء، الذين كانوا يعتمدون على انفسهم في نشر مؤلفاتهم الحديثة او نشر كتب التراث التي قاموا بتحقيقها.

ورغم كثرة هؤلاء في ميدان المؤلفات الحديثة كالشاعر سعيد أبي بكر، والشيخ محمد العربي القروي، والشاعر صالح السويسي، والمؤرخ احمد توفيق المدني، والبحاثة محمد ابن الخوجة، والرحالة محمد المقداد الورتتاني، والأديب محمد المرزوقي، والشاعر منور صمادح، فان باب التراث كان ضئيل الحظ جدا.

ولاشك ان ابرز الأسماء وأهمها هو الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب، الذي يعتبر الرائد الأول للبحث الحديث في خصوص الحضارة الاسلامية بتونس ونشر التراث العربي بها، فأول كتاب طبع له كان عام 1905 ، وآخر كتاب كان في عام 1968 ، وبين هذين التاريخين نشر بالعربية والفرنسية عشرات الكتب والأبحاث المتصلة بالتراث التونسي خاصة، والمغربي عموما.

وسأكتفي هنا بذكر الأسماء البارزة من كتب التراث التي نشرها، والكتب ذات العلاقة الوثيقة به.

فمن النوع الأول :

1 ـ القسم الافريقي من كتاب « أعمال الاعلام » لابن الخطيب، طبع في بلرمو بصقلية عام 1910.

2 ـ « رسائل الانتقاد » لابن شرف القيرواني، ط. 1911.

3 ـ« آداب المعلمين » لمحمد بن سحنون، ط. 1931.

4 ـ « رحلة التجاني »، ط. 1958.

5 ـ « وصف افريقية والأندلس »، من كتاب المسالك للعمري، ط. 1921.

6 ـ « الجمانة في ازالة الرطانة »، (في لهجة اهل الأندلس لمؤلف مجهول)، ط. 1953.

7 ـ « التبصر بالتجارة » للجاحظ، ط. 1932 و 1966.

8 ـ « كتاب يفعول » للصاغاني، ط. 1924.

9 ـ « ملقى السبيل » للمعري، ط. 1911.

ومن النوع الثاني :

1 ـ « بساط العقيق في حضارة القيروان وشاعرها ابن رشيق » ط. 1911.

2 ـ « الامام المازري » ط. 1955.

3 ـ « مجمل تاريخ الأدب التونسي » ط. 1968.

4 ـ « شهيرات التونسيات » ط. 1934 و 1966.

5 ـ « ورقات عن الحضارة العربية بافريقية » ـ جزآن ط. 1965 و 1966.

عهد الاستقلال الحديث

وهذه الكتب الثلاثة الأخيرة قد صدرت أو أعيد طبعها مع رحلة التجاني في عهد الاستقلال، وهذا يدعونا إلى أن نختم جولتنا بعرض ما تم انجازه في عهد الاستقلال، من مشاريع وكتب تتصل بتراثنا تحقيقا ونشرا. مع الملاحظة بان السنوات الخمس الأولى من الاستقلال قد انصرفت فيها كل الجهود إلى تجسيم مظاهر الاستقلال وتحقيق الجلاء، وهذا ما جعل النشاط الرسمي في ميدان احياء التراث يتأخر بعض الشيء، غير ان تدارك ذلك قد وقع بالتدريج في السنوات اللاحقة، فقد ظهرت باكورة انتاج وزارة الثقافة عام 63، بنشرها تباعا كتاب « اتحاف اهل الزمان باخبار ملوك تونس وعهد الأمان » لأحمد بن أبي الضياف في ثمانية اجزاء، وهناك كتب اخرى اصدرها (المعهد القومي للآثار) قبل هذا التاريخ، أي بين اعوام 57 ـ 1962 حين كان يديره العلامة المرحوم حسن حسني عبد الوهاب، فقد نشر المعهد المذكور مجموعة من الكتب، عربية وفرنسية، من اهمها « **رحلة التجاني** » و « **مؤنس الأحبة في اخبار جربة** » المنسوب لمحمد أبو رأس الجربي، وكتاب عن « **نقائش القرجاني** » وآخر عن « **نقائش المنستير** ».

وابتداء من عام 1966 اناطت وزارة الثقافة بتونس مهمة نشر التراث إلى الدار التونسية للنشر، فاصدرت حتى الآن الكتب التالية :

1 ـ الجزء الأول من « القسم المغربي من خريدة القصر » للعماد الاصفهاني.

2 ـ « الفارسية في مبادى الدولة الحفصية » لابن القنفذ.

3 ـ « الواضح في مشكلات شعر المتنبي » لأبي القاسم الاصفهاني، بتحقيق العلامة محمد الطاهر بن عاشور.

4 ـ « سياسة الصبيان » للطبيب احمد بن الجزار القيرواني.

5 ـ « طبقات علماء افريقية وتونس » لأبي العرب.

أما الناشرون الخواص بتونس فقد نشروا خلال السنوات الخمس الماضية كتبا أخرى من التراث، أهمها ما نشرته مكتبة المنار وهو :

1 ـ « اشعار أبي الحسن علي الحصري الشاعر القيرواني الضرير.

2 ـ « جيش التوشيح » لابن الخطيب.

3 ـ ورقات عن الحضارة العربية بافريقية » لحسن حسنى عبد الوهاب، الجزآن الأول والثاني، وهي الآن تهيء الجزء الثالث، وكتبا اخرى للمؤلف نفسه.

كذلك نشرت المكتبة العتيقة بتونس، أربعة كتب من تراث تونس والأندلس، وهي :

1 ـ « تاريخ الدولتين » للزركشي.
2 ـ « قلائد العقيان » للفتح بن خاقان الأندلسي.
3 ـ المؤنس في اخبار إفريقية وتونس » لابن أبي دينار.
4 ـ « فهرست الشيخ الرصاع ».

الا ان طبع واخراج هذه الكتب كان رديئا للغاية، ومحشوا بالاخطاء المطبعية، كما رتبت فيها الفهارس بطريقة غير علمية. مع العلم بان الكتب الثلاثة الأولى قد سبق طبعها في تونس أو باريس بعناية أفضل وطبع أليق وأتقن.

ونشرت دار الكتب الشرقية كتاب « منهاج البلغاء » لحازم القرطاجني، وهو من تحقيق الدكتور محمد الحبيب بن الخوجة.

ونضيف إلى هذا كله نشاط بعض المحققين التونسيين الذين ساهموا في خدمة التراث العربي عامة والمغربي بوجه خاص، سواء بتحقيق الكتب أو ـ بوضع الأبحاث والفهارس حولها.

ومن أبرز العاملين في هذا النشاط الأستاذ ابراهيم شبوح، الذي نشر حتى الآن، المجموعة التالية من كتب التراث أو من الفهارس والبحوث حولها :

1 ـ الجزء الأول من « معالم الايمان في معرفة اهل

القيروان » للدباغ .

2 ـ « برنامج شيوخ الرعيني الاشبيلي » .

3 ـ فهرس كتب الطب المصورة في معهد المخطوطات العربية بالقاهرة » .

4 ـ « سجل قديم لمكتبة جامع القيروان .

هذه لمحة عن وضعية تراثنا تحقيقا ونشرا في عهد الاستقلال ، ولم نتعرض إلى عشرات الكتب الحديثة التي طبعت في السنوات العشر الماضية ، اذ لا صلة لها بموضوعنا ، كما اننا لم نتقص كل كتاب طبع ، بل غرضنا اعطاء صورة عامة .

خطوات نحو المستقبل

ونود في النهاية أن نختم هذه الجولة باستكمال جوانب اخرى تتصل بالتراث وذات أهمية قصوى للباحثين والمهتمين به .

وأول هذه الجوانب ، ان تراث تونس بل المغرب العربي كافة ـ بما فيه تراث أجدادنا في الأندلس وصقلية ـ لايزال مشتتا في جميع انحاء العالم .

إن الشأن يدعو أن تنهض الحكومات المغربية ، منفردة أو

مجتمعة، إلى جمعه بواسطة الشراء أو التصوير، وهذا يقتضي ايجـاد مركز مشترك، أو معهد خاص، يضم نفائس تراثنا، ويحتوي على مصور لكل مخطوط مهما كان حجمه وكانت أهميته.

وقد بدأت تونس خطوة أولى نحو هذه الغاية، حيث صدر أمر جمهوري في العام الماضي (1968) يقضي بلمّ شتات المخـطوطات المفرقة في الجوامع والمكتبات الحكومية والزوايا لتجمع في مكان واحد، هو الآن دار الكتب الوطنية، التي ينتظر أن تضم زهاء أربعين ألف مخطوط.

غير أننـا نلاحظ ان القـانـون ـ أو الأمر الجمهوري ـ لم يتعرض بشيء لمكتبات الخواص، لهذا فان الشأن يدعو أيضا إلى اصدار أمر آخر يحمي تراثنا ووثائقنا القومية، بحيث يمنع الأفراد المالكون لها من بيعها إلى الأجانب أو تحويلها إلى جهة أخرى دون علم السلط المعنية.

كذلـك ينبغي ان ينص هذا القانون على اتاحة الفرصة أمـام البـاحثـين للاستفـادة مما يملكـه الخـواص من وثائق ومخـطوطات، وهذا لا يكون الا بعد تصويرها او تسجيلها لدى المؤسسات المعنية.

ويطيب لي هنا ان انوه بوجه خاص بالجهود التي بذلها الاشقاء في المغرب الأقصى لاسيما في جمع التراث وفهرسته والتعريف به في المجلات، والعمل على تحقيق عيونه ونشرها بين الناس.

توصيات مقترحة

وانني اقترح بهذه المناسبة ان نخرج من هذا المؤتمر بتوصيات خاصة بالتراث، منها :

1) الدعوة إلى عقد ملتقى يضم المعنيين بالتراث والمتخصصين فيه والمشتغلين به.

2) حث الحكومات المغربية على زيادة العناية به، سواء بجمعه أو نشره أو التعريف به، أو تشجيع المنقطعين إلى خدمته.

3) العمل السريع على وضع الفهارس العلمية للخزائن والمكتبات الموجودة حاليا. وطبعها ونشرها للناس.

4) توفير جميع الوسائل العلمية والتسهيلات والمساعدات اللازمة لكل الباحثين الجادين، سواء في هذا المركز المقترح أو في كل قطر على حدة، مثل جمع الفهارس الخاصة بالمخطوطات العربية، واحضار مصورات الكتب المطلوبة، وتصوير ما يطلبه الباحثون بايسر التكاليف، واسرع مدة ممكنة.

5) ضرورة قيام تعاون متين بين الأفراد والمؤسسات الجامعية والعلمية المعنية بأمر التراث، وتبادل الخبرات والوثائق والانتاج والباحثين.

6) ضرورة الاعلان مسبقا من طرف الباحثين المغاربة - سواء بواسطة الصحافة والمجلات الجامعية او غيرها عما يعتزم كل باحث تحقيقه، حتى لا تضيع الجهود المتعددة في كتاب واحد، كما حدثت مثلا في كتاب المدارك للقاضي عياض، حيث اشتغل به ثلاثة أفراد في وقت واحد تقريبا، وهكذا صدرت طبعته كاملة مع الفهارس منذ عام ، بينما يوالي آخرون نشره في المغرب. ولم يتجاوزوا بعد ثلث الكتاب، اما الجهة الثالثة فقد امسكت عن العمل لأسباب قد لا يكون بينها العلم بصدوره. ومثل هذا حدث أيضا في كتاب « سياسة الصبيان » لابن الجزار، حيث انصرف إلى تحقيقه استاذ تونسي في حين كان غيره قد فرغ من تحقيقه وقدمه للطبع.

وبصرف النظر عن المبررات التي قد يقدمها اللاحقون في العمل المسبوق، فاننا نقصد - في الواقع - إلى شيء آخر اكثر جدية وفائدة وهو ان أهل الاختصاص والخبرة والاهتمام بخدمة التراث وتحقيقه وممارسته قليلون جدا في كل أقطار المغرب العربي، ومن هنا وجب الاقتصاد في الجهود وصرفها اولا وبالذات إلى كل جديد، وإلى كل كتاب بكر لم يعن به

أحد، وبذلك نجتنب التكرار في العمل، وتبذير امكانياتنا القليلة في هذا الميدان، بحيث لا يعتني بكتاب واحد الا شخص واحد، وهذا لا يكون الا بالاعلان المسبق عن كل كتاب يرغب باحث أو محقق في الاهتمام به ونشره بين الناس.

وهذا الاتجاه، فضلا عن كونه يحفظ لنا جهودنا وامكانياتنا، ويعلو بالعمل العلمي فوق مستوى المنافسة والاثرة، ويجعل من اهل العلم قدوة لغيرهم في ميادين أخرى، فضلا عن ذلك كله هو أيضا سنة متبعة لدى أهل العلم في هذا الباب، من غربيين ومستشرقين.

ملحق، حول الترجمة

أما ميدان الترجمة، فاننا نستطيع الآن القيام بعمل عظيم للغاية في نقل كثير من عيون الكتب التي وضعت بالفرنسية والايطالية والاسبانية، عن بلادنا أو تاريخنا أو تراثنا، سواء منها ما تعلق بعصور الاسلام أو ما تعلق بالعصور القديمة السابقة له.

ومن حسن الحظ، ان لدينا جيلا من المترجمين الاكفاء، والأمر لا يحتاج الا إلى تنظيم وعناية وتشجيع من طرف الحكومات والجهات المعنية.

وحبذا أن يعقد ملتقى لدراسة هذا الموضوع، وان يتم الاتفاق فيه على سبل العمل، وبالخصوص على الكتب التي ينبغي المبادرة بترجمتها.

وفي اعتقادي ان من واجب الحكومات المغربية الاتفاق على مشروع للترجمة طويل النفس كثير الكتب، كأن يضم مثلا خمسمائة أو ألف كتاب، توزع على عشر سنوات أو عشرين سنة.

وتقسم حسب لغاتها واختصاصاتها على أقطار المغرب العربي، التي عليها ان تتفق في كل أمر يتعلق بهذا المشروع.

انه مجرد اقتراح، فهل يتحول إلى توصية؟ وهل يتحقق يوما؟ (8).

الهوامش

(*) بحث قدم إلى مؤتمر أدباء وكتاب المغرب العربي المنعقد بطرابلس الغرب، بين 15 ـ 1969/3/21. ونشر في نفس العام بمجلة الرواد بطرابلس ومجلة الفكر بتونس.

1) الأول من المغرب الأقصى، والثاني من الجزائر والثالث من تونس، والرابع من ليبيا، وكلهم من ذوي الشهرة والصيت، وفي غنى عن كل تعريف.

2) راجع عنه : معجم المؤلفين ج 11 ـ ص 82 والاعلام ج 7 ـ ص 209.
وجلة كلية آداب الاسكندرية م 2 (1944) ص 179 ـ 221.

3) راجع عنه معجم المؤلفين ج 4 ـ ص 80 ـ الاعلام ج 2 ـ ص 313 .
4) أقام الشدياق مدة بتونس قبل تأسيس المطبعة، وزارها قبل ذلك مرتين، واعتنق فيها الاسلام وتسمى باسم احمد، اعجابا منه بالباي احمد الذي مدحه وكان سبب قدومه لتونس .
5) انظر عن هذا الدستور، وظروفه ونصه، كتاب « الدستور التونسي » لزين العابدين السنوسي ط. 2 ـ تونس 1955 .
6) راجع تفاصيل ما طبعته المطبعة الرسمية قبل الحماية في : (المجلة الزيتونية) م 4 ـ ج 5 ـ ص 19 ـ 6 ـ ومجلة ابلا ـ IBLA ـ عدد 98 ـ ص 147 ـ 173 .
7) انظر عن هذه اللجنة، مقدمة هذا الكتاب، ومقدمة (رحلة التجاني) بتحقيق ح.ح. ع. ط. تونس 1958 .
8) فعلا، لقد تبنى المؤتمر جل هذه المقترحات واعلن عنها في توصياته وقراراته الختامية .

مراجع البحث

بالاضافة لما ورد في البحث من كتب ومجلات، رجعنا أيضا للمراجع الآتية :

1 ـ التونسي، محمد بن عمر :
تشحيذ الاذهان بسيرة بلاد العرب والسودان بتحقيق د. خليل م. عساكر، وزميله، ط. القاهرة 1965 .

2 ـ الزركلي، خير الدين :
الاعلام، معجم رجال، ط. 2 ـ القاهرة 55 ـ 1958 .

3 ـ سركيس، يوسف اليان :
معجم المطبوعات العربية والمعربة، ط. 1928 .

الشيال، جمال الدين (دكتور) :
تاريخ الترجمة والحركة الثقافية في عصر محمد علي،
ط. مصر 1951 .
5 ـ شيخو، لويس (الأب) :
الآداب العربية في القرن 19 ، ط. بيروت 24 ـ 1926 .
6 ـ كحاله، عمر رضا :
معجم المؤلفين، ط. دمشق 57 ـ 1961 .
7 ـ كرو، أبو القاسم محمد :
دفاعا عن الثقافة القومية ، (كتاب جاهز للطبع ، نشرت معظم فصوله في الصحف).
8 ـ المهيدي ، محمد الصالح :
أ ـ تاريخ الطباعة والنشر بتونس (محاضرة) ط. تونس 1965 .
ب ـ تاريخ الصحافة العربية وتطورها بتونس (محاضرة)
ط. تونس 1965 .

المخطوطات الليبية في المكتبات التونسية

في سنة 1968 صدر مرسوم جمهوري بتونس يقضي بجمع كافة المخطوطات (المنتشرة بين الجوامع والزوايا والمعاهد الدينية والعلمية) في مقر واحد هو دار الكتب الوطنية .

وبفضل هذا المرسوم بلغ عدد المخطوطات اليوم، في دار الكتب الوطنية، خمسة وعشرين الف مخطوط، بعد ان كان عددها لا يزيد عن خمسة آلاف عنوان .

ومع ذلك فان المرسوم لم يشمل بنصوصه المكتبات الخاصة والمكتبات المحروسة من احفاد مؤسسيها في عدد من الزوايا المنقطعة .

ولعل أهم هذه المكتبات الخاصة مكتبات آل عاشور وماضور والسبعي وشبوح وآل النيفر : الشاذلي والمهدي والبشير وعلي . . . الخ أما مكتبات الزوايا فمن أهمها زاوية التليلي والجمني وأبي لبابة .

وتتميز بين جميع المكتبات العامة مكتبة جامع عقبة بالقيروان المعروفة باسم "المكتبة العتيقة" فهي الوحيدة التي كانت تضم أنفس المخطوطات وأكثرها عراقة في القدم وأصالة في التراث . . . ولهذا سميت بـ"المكتبة العتيقة" .

ورغم الحروب والفتن المخربة التي أصابت القيروان طوال ألف سنة، فقد وصلنا سالما من مكتبتها العتيقة مئات الصحف المكتوبة على الرق . . . معظمها مصاحف جرى تحبيسها في القرن الرابع وكتب في الحديث والفقه والتفسير مثل مدونة سحنون والأسدية لأسد بن الفرات وتفسير يحي بن سلام المتوفّى عام 200 هـ(1).

لكن أعتق وأقدم كتاب وصلنا من تراث القيروان كان كتاب موطأ مالك بن انس برواية علي بن زياد الطرابلسي المتوفّى بتونس عام ثلاثة وثمانين ومائة للهجرة.

والذين تعمقوا في تاريخ الثقافة والحضارة العربية الاسلامية بافريقية يعرفون جيدا ان موطأ علي بن زياد الطرابلسي كان أول كتاب عربي واسلامي بعد القرآن ظهر في المغرب العربي، وانه أيضا كان الأساس الذي قام عليه مذهب الامام مالك وساد وانتشر بواسطة رواته من تلاميذ ابن زياد كاسد بن الفرات وسحنون والبهلول بن راشد وغيرهم(2).

ومن حسن الحظ فان ما يزيد عن مائة صفحة مطبوعة من موطأ ابن زياد قد قهر المحن والكوارث والفتن على مدى الف ومائتين وخمسين عاما ليبقى شاهدا على ذلك التاريخ القومي المتحد والمجد العلمي العريق (3).

وعلى هذا فان موطأ علي بن زياد الطرابلسي هو أول واقدم وأنفس مخطوط ليبي موجود اليوم في المكتبات التونسية.

وهكذا نرى أيضا ان الثقافة العربية الاسلامية في المغرب العربي قد وضع اساسها وشيّد دعائمها الأولى علي بن زياد الطرابلسي.

وفضلا عن علي بن زياد توالت بعده من فجر القرن الثالث حتى نهاية القرن الثالث عشر الهجري عشرات بل مئات الاسماء من العلماء والأدباء والفقهاء الذين هاجروا من ليبيا واستقروا هم واولادهم واحفادهم في مختلف المدن التونسية والذين مازالت القابهم الجغرافية ونسبتهم البلدانية تشير بوضوح إلى مساقط رؤوسهم الأولى كالقاب التاجوري والمصراتي والمسلاتي والغرياني والدرناوي والفزاني والطرابلسي والزواري . . . الخ . . .

وقد عنيت، شخصيا، عناية خاصة ـ منذ سنوات بعيدة ـ بتسجيل الاعلام الليبيين المهاجرين إلى تونس وتوثيق

مؤلفاتهم وتاريخ حياتهم وما تركوه من أثر واشعاع في تاريخ الثقافة العربية الاسلامية في ميادين التأليف والتدريس ونسخ الكتب، فضلا عن مشاركتهم في ميادين الافتاء والقضاء والامامه ومشيخة المدارس . . .

وساقتصر هنا على الاشارة إلى أن مؤلفاتهم تتجاوز الخمسمائة كتاب ورسالة ونص تتوزعها أكثر من ثلاثين مكتبة خاصة ومحبسة وفي دار الكتب وما ألحق بها من مكتبات. ومعظم هذه المكتبات لم تفهرس ولا يوجد لها دليل يساعد الباحثين على كشف خباياها والاستفادة منها (٤).

وسأقتصر في بحثي على التعريف بمخطوط ليبي واحد هو أصغر مخطوط في مكتبتي وأظنه من النصوص الفريدة في قيمتها ودلالتها التاريخية والعلمية. ذلك انه، على صغر حجمه (حيث لم يتجاوز صفحتين) فقد اشترك في انتاجه ونسخه والعلاقة به أكثر من ثمانية علماء وأدباء جمعتهم فعلا وحدة ثقافية عربية فريدة من نوعها . . فثلاثة منهم مغاربة وواحد تونسي والباقون من طرابلس.

ونكتفي في هذا البحث بذكر أهم الأسماء الواردة في المخطوط الذي هو استدعاء اجازة كتبه شعرا الشيخ عبد السلام بن عثمان التاجوري باسم شيخه محمد بن احمد المكني

وباسم عدد آخر من علماء طرابلس وصفاقس بينهم الشيخ علي النـوري. والمخـاطب بالاستدعاء هو الشيخ أبو محمد الحسن بن مسعود اليوسي عندما مر بطرابلس في طريق الحج مصحوبا بابنه محمد. وقد اجابهم الشيخ اليوسي لما طلبوه - وهـو الضنين المتعالي - بان اجازهم كما رغبوا بنص شعري طريف تولّى ابنه محمد نظمه نيابة عنه ولكن باسمه الخاص ثم تولى هو التوقيع عليه بتاريخ 24 شعبان عام 1101 هـ اي قبيل وفاته بسنة..

وقد نقل لنا نص الاستدعاء والاجازة الشيخ عبد القادر الزيني المغربي نزيل تونس والذي كان حيا بها عام 1244 هـ تاريخ كنـاشـه الـذي نسـخ فيه مختـاراتـه الأدبية، وبينهـا الاستدعاء والاجازة كما وجدهما بخط عبد السلام بن عثمان على هامش نسخته من كتاب محاضرات اليوسي. وقد طبعت المحـاضرات طبعتين حتى الآن وليـس بهـا الاستدعاء ولا الاجازة. ولكي نستوعب الملابسات والظروف التي أدت إلى كتـابة هذا النص، ولكي نصـل إلى فهم اعمق وأشمـل لمضمونه، ينبغي ان نشير، قبل ذلك إلى معلومة تاريخية، هي من البديهيات عندكم، ولدى الباحثين والمؤرخين ولكنها قد لا تكون كذلك عند الآخرين... وهذه المعلومة هي أن مدينة طرابلس كانت منـذ القـرن الثـاني الهجري وحتى منتصف

القرن الرابع عشر محطة هامة جدا لقوافل المسافرين والتجار بين المغرب والمشرق، وخاصة للحجاج والعلماء والرحالين، وبصفة أخص للقادمين من الأندلس والمغرب الأقصى.

وقد ثبت أن أقل اقامة لهم بها تدوم اسبوعا وقد تمتد إلى ثلاثة أو أربعة أسابيع . . . يقضيها معظمهم في التزود بالماء والغذاء وجميع ما يحتاجونه في رحلتهم الطويلة الشاقة. ذلك ان طرابلس هي ـ جغرافيا ـ في منتصف الطريق من اقصى المغرب إلى الاسكندرية. وهي أيضا أهم مدينة تقع في أطراف افريقية باتجاه الشرق، وبعدها تقل الامصار والقرى وتمتد القفار والأراضي الجدباء.

وفضلا عن ذلك كانت طرابلس مركز جذب واغراء بالاقامة للرحالين والحجيج من أهل العلم والفقه والأدب. لهذا فمعظمهم يطيل بها اقامته حتى يتعرفوا على من بها من أهل العلم.

وفي هذا السياق . . وبناء على هذه المعطيات نزلت ببساتين المنشيه، من ضواحي طرابلس، قافلة من حجيج المغرب الأقصى كان على رأسها العلامة الكبير والأديب الجهير الشيخ ابو محمد الحسن بن مسعود اليوسي. وكان وصول القافلة ونزولها يوم السبت الثامن عشر من شعبان عام واحد ومائة والف (1690/5/27 م).

وكما هي عادة الفضلاء الكرماء من علماء طرابلس فقد أصر كبير علمائها ـ يومئذ ـ الشيخ محمد بن احمد بن محمد المكني الطرابلسي على أن تكون اقامة الشيوخ العلماء في داره الواقعة ببستانه من ضاحية المنشية. وبالطبع كانت أوقات الفراغ الكثيرة فرصة للمجالسة والمحاورة وتعميق المودة والاستفادة العلمية المتبادلة بين الجميع . .

وقد سجل لنا هذا الكرم وتلك الضيافة العلمية الأديب محمد بن الشيخ الحسن اليوسي الذي كان مرافقا لأبيه وناطقا باسمه ومدونا لرحلته.

وهذا ما قاله عنها حرفيا.

"ثم صبحنا رباط طرابلس، عمرها الله تعالى بالاسلام، وبلغناها يوم السبت الثامن عشر من شعبان، وهذا اليوم أول أيام فصل الصيف. وتلقانا فقهاء المدينة وأوجهها وانزلونا بالمنشية، وهي ديار خارج البلد، كثيرة الأجنة والمياه العذبة، واسعة الطرق والديار، ونزلنا بدار محبنا الفقيه الأجل السيد محمد بن احمد بن محمد الملقب المكني . . . ".

هذه السطور القليلة التي استهل بها اليوسي الابن حديثه عن طرابلس . . . غنية بالمعلومات، ولكن ما يعنينا منها هنا أمران فقط : الأول تاريخ وصولهم لطرابلس، والثاني عند من كانت اقامتهم ؟

وقبل اعتماد ذلك لابد من ان نورد أيضا، ونقلا عن المصدر نفسه، فقرة أخرى لا تزيد عن سطر واحد . . . يتصل بموضوعنا ويمهد لمخطوطنا، وهو المتعلق بتاريخ سفر الشيخ اليوسي من طرابلس ومبارحته لدار مضيفه الشيخ المكني . . فقد سجل لنا ذلك أيضا الأديب محمد اليوسي كما يلي :

"ثم رحلنا منها يوم الاثنين السابع والعشرين من شعبان وبتنا بتاجوراء" . .

اذن . . . فان الشيخ الحسن اليوسي - وهو من هو . . . علما وأدبا ودينا - قد أقام بطرابلس، في طريقه للحج، مدة عشرة أيام كاملة، وانه أقام كل هذه المدة في ضيافة الشيخ الطرابلسي محمد المكني، بل وكانت الاقامة في داره بالمنشية. والذين درسوا جيدا حياة اليوسي العلمية والاجتماعية، مثل الشيخ الكتاني الذي أكد لنا في كتابه "فهرس الفهارس " ان الحسن اليوسي كان لا يسعى لأهل العلم ولا يميل إلى سهولة العلاقة بهم، الذين يعرفون ذلك يستغربون وينبهرون - دون ريب - من هذا اللقاء الحميمي الطويل الذي جمع، في طرابلس، بين الشيخين اليوسي المغربي والمكني الطرابلسي. ويزداد استغرابهم وانبهارهم حين يعلمون ويتأكدون ان اللقاء المذكور لم ينته بشكل سلبي

معتـاد، من تبادل المجاملات وعبارات الشكر والمودة وكفى . . بل سجله لنا المشتركون فيه من علماء وأدباء في نصـوص أدبية رائقـة، وبتوسع علمي مرموق، شمل الحاضرين فيه والغائبين، ممن لهم مكانة في العلم وموقع في نفوس الجميع . .

وقد تمثل كل ذلك فيما دونه عالم طرابلسي كهل من تلاميذ الشيخ المكني وهو الشيخ عبد السلام بن عثمان، وأكده أيضا الأديب محمد اليوسي بما دونه في رحلة أبيه عن اقامتهم بطرابلس . .

وعلى هذا فقد توفر لنا عن هذا اللقاء ونتائجه الأدبية والعلمية نصان يكملان بعضهما . .

النص الأول . . . ورد في مجموع (كنش) من الرسائل والمختارات الأدبية جمعها عالم مغربي لاحق هو الشيخ عبد القادر بن عبد القادر بن الزين المغربي الخالدي الميموني نزيل تونس، والذي كان بها عام 1244 / 1828 . اي ست سنوات فقط بعد وفاة عبد السلام بن عثمان التاجوري . .

لقد تمكن هذا الشيخ المغربي من الحصول على مجموعات هامة من المخطوطات والوثائق . . . بينها محاضرات اليوسي وعليها اضافات بخط التاجوري . كما عثر على صندوق به

أكثر من مائتين من رسائل العلماء والأدباء والأمراء المعاصرين لعالم مغربي تونسي سابق هو الشيخ احمد بن عبد الله السوسي المولود بتونس والمتوفي بها عام (1212/1797) وكان بين هذه الرسائل زهاء خمس وعشرين رسالة كتبها للشيخ السوسي المحدث الكبير واللغوي الشهير الشيخ محمدمرتضى الزبيدي (1205/1791) مؤلف تاج العروس. وقد أحسن لنا الشيخ عبد القادر الزيني حين اختار هذه الرسائل النادرة واضافها إلى كناشه الأدبي . . كما احسن لنا ثانية حين رمى بين مجموعه بنصين أدبيين هامين . . تضمن أولهما استدعاء كتبه الشيخ عبد السلام بن عثمان نيابة عن شيخه المكني طلب به من الشيخ اليوسي (ضيفهم يومئذ) ان يجيز الشيخ المكني ومن حوله من علماء وتلاميذ مقربين وخاصة منهم كاتب الاستدعاء عبد السلام بن عثمان وزملاء آخرين ذكر في الاستدعاء اسماءهم الصغيرة فقط . . ويحتاج التعرف عليهم بصفة مدققة إلى بحث لاحق. ولكن مما يلفت النظر هنا ان الاستدعاء تضمن أيضا اسم الشيخ علي النوري الصفاقسي مع انه كان بعيدا في الاقامة عنهم اذ كان، في هذا التاريخ، مستقرا ببلده صفاقس. ولكن يبدو ان هذه كانت طريقة متبعة . . . فكان كل منهم مفوضا للآخرين بطلب الاجازة نيابة عنه . .

أمـا النص الثـاني كما جاء في الكنش فهو جواب الشيخ اليوسي على الاستدعاء بان اجاز للجميع بمن فيهم الشيخ النـوري الـذي خص في الاجـازة كما في الاستدعاء بتنويه خاص واشادة فائقة . .

وقد أكدت ذلك كله رحلة اليوسي كما دونها ابنه محمد، حيث اورد فيهـا الابن نص الاستـدعـاء متبـوعـا بنص الاجازة . . . ولكن دون تاريخ ، وهذه الرحلة ماتزال مخطوطة في خزاين المغرب (5) وقد تفضل الصديق الدكتور محمد ابو لجفان فنسخ لي محل الحاجة منها. غير ان نصها الموجود في مكتبتي، ضمن المجموع المذكور، هو أدق كما أنه يحمل تاريخ الاجـازة مع بعض التفاصيل. لهذا سنعتمده كنسخة أولى ونعتبر نص الرحلة نسخة ثانية وهناك نسخة ثالثة ولكنها جزئية تضمنت فقط ست أبيات من الجـواب واجازته وأضيف لها تحليل لشخصية اليوسي الكبير وما تميز به من ترفع عن معاشرة العلماء وعدم ميله لتبادل الاجازات معهم . . مما يعطي هذه العلاقة والاجازة التي وقعت بينه وبين العالم الطرابلسي مكانة خاصة في تاريخ الرجلين وقد أورد هذا النص الجرىء الشيخ عبـد الحي الكتـاني في كتـابـه "فهرس الفهارس" (6) وقد اعتمدنا عليه أيضا في تصحيح النص وتقديمه .

ونورد الآن نص الاستدعاء ونص الاجازة الشعريين كما

أوردهما الكنش المغربي لصاحبه عبد القادر الزيني الميموني وهوَ يؤكد لنا بانه نقلهما عام 1244 من هامش نسخة التاجوري من محاضرات اليوسي، كما يؤكد انهقد نقلعن خط عبد السلام بن عثمان مباشرة، وقد أثبتنا النص مصححا اعتمادا على الرحلة وعلى الكتاني، ذلك ان نص الاجازة في الكنش قد جاء مملوءا بالاخطاء. يقول نص الكنش :

"الحمد لله،

"ومما وجدته بظهر كتاب المحاضرات للشيخ الفاضل خاتمة المحققين سيدي الحسن اليوسي، بخط الشيخ خاتمة علماء محروسة طرابلس أبي محمد عبد السلام بن عثمان من احفاد الشيخ سيدي عبد السلام هذا نصه :

"الحمد الله وصلى الله على سيدنا محمد وآله.

يقول كاتبه عبد السلام بن عثمان : لما أن حل ببلدنا طرابلس الشيخ الامام سيدي الحسن اليوسي ابقى الله بركته، كتبت له على لسان سيدي محمد ابن احمد المكني استدعاء اجازة له ولجماعة من اصحابه بما نصه :

أعالم أهل الأرض في أي ما قطر
وعلامة الدنيا جميعا بلا نكر
وقدوة ارباب الهداية والتقى
مجدد دين الله حقا بذا العصر

أيا شيخنا اليوسي يـا شيخ وقتـه
وعمدة أقطاب الوجود بذا الدهـر
مقيـد هـذا المكنـي محمـد
محبكـم سـرا وفي ظاهـر الأمـر
يؤمل منكم ان تجيـزوه بـالذي
رويتم ورويتم من العلم والذكر
فان لم يكن أهلا لما رام منكـم
فانكـم أهل الفضائـل والخيـر
فمنوا باغضـاء علـى من يحبكـم
وان كان عما رامه ناقص القـدر
ومهمـا تفضلتـم بـذاك فعممـوا
لاخوانه في الله من اهل ذا المصر
كمثل ابن عثمان المعظم ذكركـم
وقدركم عبد السلام اخي البـر
كذلك ابراهيم وهو ابن مصطفى
كذلك سحبان اخي سالم الصدر
كذاك على وابن منصور الـرضى
وسائـر عواني على الخيـر والبـر
كذاك على عين أهل صفاقـس
وفاضل من فيها الملقب بالنوري

فبالله خذ يا سيدي بخو اطـــري

علـى ما ترى نظما وان شئت بالنثر

فلا زلتـــم أهـلا لكـل فضيلـــة

ولا زال نهر الفضل في ارضكم يجري

فأجاب ابنه على لسان والده، لأنه كان ضعيفا، بما نصه :

يا سيـدا قـد حـاز كـل فضيلـــة

وعمـــم بالنعمـــاء والخيـر والبـــر

ومحـرز المجـد الذي فـاح نشـره

وملجـأ هذا القطـر في فـادح الأمـر

محمــدا المكنـي ابن عالم مصـــره

محط رحال الفاضلين مدى الدهـر

وقد بلغت تلك المعانـي كأنهـا

حلى زانها الصواغ من خالص التبـر

ومـا رمتـه منا فاهـــلا ومرحبـــا

وان لم أكن أهلا فملتمـس العـــذر

أقول : وحمد الله اول منطقـي

وذخري ذكر الله في السر والجهـر

أجزت لكم في كل ما قدر رويته

وما قلت قبـل من نظـام ومن نثـر

كذا الرفقـــاء الماجدون تعمهـم

اجازتنـا من قاطنيـن بـذا المصـر

كذا الماجد النحرير عين صفاقس

أبو الحسن النوري ذو المجد والفخر

وحدثتكم في ذلكم عن شيوخنـا

ذوي العلم والعرفان والفضل والقدر

ومن شاء يستقصي ففهرسة لنـا

تضيء لهم كالنجم في الطالع الزهر

على شرطها المعتاد في كل دورة

من الفهم والتحصيل والصدق في الذكر

فنسأل رب العرش ان يبلغ المنى

ويصلح شأن الطالبين ومن يقري

بجاه النبي الهاشمي محمـد

سـلام عليه عاطر طيـب النشـر

واتباعـه والآل طـرا وصحبـه

عليهم سلام سر مدا دائم الذكر

وكتب عن اذن أبيه وسيده عبيد ربه العلي محمد بن الحسن اليوسي. كان الله له آمين. يوم الجمعة الرابعة (7) والعشرين من شعبان احدى ومائة والف. انتهى.

"وبعده بخط الشيخ ما نصه : صحيح ذلك وكتب الحسن بن مسعـود اليوسي كان الله له. انتهى. ومن خطهما نقلت والحمد لله رب العالمين" (8)

ان قول الناسخ في نهاية الاجازة : ومن خطهما نقلت أي من خط اليوسيين الأب والابن. أما الاستدعاء فقد أكد في البداية انه نقله أيضا من خط كاتبه عبد السلام بن عثمان. ومعنى هذا ان الناسخ كان يملك النسخ الاصلية للاستدعاء والاجازة، وان كلا منهما كان مثبتا أو مضافا إلى نسخة من محاضرات اليوسي التي كانت على ملك الشيخ عبد السلام الطرابلسي. فكيف انتقلت لهذا الناسخ المغربي وهو مقيم بتونس ؟ وفي مدة وجيزة لم تتجاوز ست سنوات بعد وفاة صاحبها عبد السلام بن عثمان، الذي تؤكد جميع المصادر بانه توفي عام (1139/1727) ؟

مهما يكن من امر فان ما نؤكد عليه في نهاية هذا البحث هو عمق واتساع العلاقات والروابط الثقافية التي كانت بين علماء المدن والاقطار المغربية في العهد العثماني، وذلك رغم الانقسامات السياسية والفتن والحروب الأهلية.

فمن خلال هذه الوثيقة، التي لا يزيد حجمها عن صفحتين، رأينا كثافة المعلومات والروابط الأدبية والعلمية بين علماء ومثقفي ذلك العصر.. مما يحتاج إلى دراسات خاصة به مستقلة عن موضوعنا.

ونود ان نلاحظ في الختام اننا لم ندخل في الاعتبار جوانب هامة اخرى مثل علاقة الشيخ علي النوري بعلماء طرابلس، وما كان يتمتع به هذا العالم المجاهد المرابط من صيت في الجهاد ضد القرصنة الصليبية المتكالبة في عصره على السواحل المغربية، وما كان له أيضا من اشعاع في العلم مما حمل كلا من اصحاب الاستدعاء الطرابلسيين وصاحب الاجازة المغربي على التنويه به تنويها خاصا.

والطريف هنا ان الشيخ علي النوري كان مرجع النظر لعلماء طرابلس وتاجوراء في عهده . . وكانوا يحتكمون إليه في الخلافات العلمية التي تحدث بينهم . . . وكانوا يرسلون إليه بمؤلفاتهم الجديدة ليقول فيها رأيه. وقد نشرت في المدة الأخيرة بتونس رسالة صغيرة (٩) للشيخ النوري تتضمن بعض هذه القضايا الخلافية التي حدثت بين علماء طرابلس وتاجوراء. وكيف احتكموا فيها إلى الشيخ النوري، وقد كان في احكامه وآرائه صريحا نصوحا عفيفا. وكان اول المهزومين فيها هو الشيخ عبد السلام بن عثمان صاحب الاستدعاء المذكور على ان لهذا الشيخ نفسه مؤلفات في الفقه والتصوف استهان بها واستنقص قيمتها العلمية شيخ المؤرخين الطرابلسيين ابن غلبون مؤلف التذكار (١٠).

ملحق بالمخطوطات الليبية في :

1 ـ المكتبة العاشورية

الدرناوي : علي بن محمد.

1 ـ الرحلة إلى استانة (مبتور الآخر)

زروق : احمد بن احمد . . .

2 ـ قواعد زروق

قطعة 1 من مجموع (ق 1 ـ 2).

3 ـ مختصر قواعد التصوف .

ن ـ 203 ا هـ

قطعة 2 من مجموع (ق 3 ـ 64).

4 ـ مفتاح السداد الفهمي في شرح (الارشاد الفقهي) لابن عسكر البغدادي .

ن ـ محمد بن أبي القاسم العجاني 1025 هـ.

5 ـ رسالة في الوعظ (مبتور الآخر).

قطعة 4 من مجموع (ق 3).

6 ـ شرح حزب البحر (لابي الحسن الشاذلي) .

ن ـ حسن بن حميدة الشنوفي 1224 هـ.

قطعة 4 من مجموع (ق 1 ـ 37).

7 ـ قصيدة في الابتهال إلى الله .

خط مغربي قطعة 5 من مجموع (ق 82 ـ 83) .

التاجوري : عبد الرحمان بن محمد .

8 ـ رسالة في شرح جهة القبلة (لقوله تعالى : "قد نرى تقلب وجهك في السماء . . . الآية .

نسخة بخط المؤلف .

خط مغربي . قطعة 2 من مجموع (ق 45 ـ 50) .

حلولو : احمد بن عبد الرحمان بن موسى اليزليتيني .

9 ـ التوضيح في شرح التنقيح (للقرافي) .

خط مغربي .

10 ـ الضياء اللامع في شرح جمع الجوامع .

ن ـ 1067 هـ .

خط مغربي .

الحطاب : محمد بن محمد .

11 ـ قرة العين لشرح ورقات إمام الحرمين .

قطعة ا من مجموع (ق ا ـ 22) .

الغدامسي : عبد الله بن عمر .

12 ـ كشف قناع المخدرات من بعض أسرار دقائق الصفات .

قطعة 3 من مجموع (ق 35 ـ 43) .

الغرياني : محمد بن علي .

13 ـ حاشية على مقدمات السنوسي .

ن ـ علي بن جاء بالله الفيتوري 1185 هـ.

14 ـ حاشية على شرح الخبيصي على (التهذيب للتفتازاني).

15 ـ ختم على سورة الصف.

ن ـ 1235 هـ.

قطعة 20 من مجموع (ق 164 ـ 173).

16 ختم على صحيح البخاري.

ن ـ 1234 هـ.

قطعة 16 من مجموع (ق 129 ـ 141).

17 ـ ختم على المعوذتين.

قطعة 19 من مجموع (ق 152 ـ 163).

18 ـ ختم على موطأ الامام مالك.

ن ـ احمد اللطيف 1228 هـ.

قطعة 17 من مجموع (ق 141 ـ 147).

19 ـ رسالة في زهد الصحابي ابي سلمان الفارسي.

قطعة 18 من مجموع (ق 147 ـ 151).

العياشي : عبد الرحمان بن محمد.

20 ـ الأنوار السنية على الوظيفة الزروقية.

قطعة 36 من مجموع (ق 273 ـ 314).

2 ـ مكتبة علي النـوري

الأسمر : عبد السلام بن سليم الفيتوري .

21 ـ الوصية الصغرى.

ن ـ محمد الخراطق 27 .

22 ـ نصيحة إلى عبد الحميد بن علي العوسجي .

خط مغرب ـ ق 8 .

23 ـ ازجال . . . .

خط مغربي. ق 170 .

ابن عبد السلام : محمد بن عمران الفيتوري.

24 ـ نزهة المتعلم بما يصير يعلم .

ن ـ محمد السيالة 1240 هـ.

قطعة 2 من مجموع ق 1 ـ 3) .

ابن غلاب : عبد السلام المصراتي ت. 646 هـ.

25 ـ الزهر الأنيق في قصة سيدنا يوسف الصديق.

ن ـ محمد بن مبارك بن قلحة 1058 هـ.

خط مغربي ق 128 .

26 ـ نسخة ثانية (ق 76).

27 ـ نسخة ثالثة (ق 72).

البهلول : احمد بن حسين بن احمد . . .

28 ـ اختصار درة العقائد.

29 ـ نسخة ثانية.

(كتبها احمد القطي كان حيا 1178 ه).

30 ـ درة العقائد ونخب القواعد.

قطعة 1 من مجموع به نسخ اخرى.

البهلول : أحمد بن عيسى . . . ؟

31 ـ تخميس ابكار الأفكار في مدح النبي المختار.

قطعة 2 من مجموع (ق 1 ـ 6).

التاجوري : عبد الرحمان . . .

32 ـ رسالة في الحج.

قطعة 2 من مجموع (ق ـ 2 ـ 5).

33 ـ ورقات في وضع بيت الابرة على الجهات الأربع.

ن. محمود السيالة.

خط مغربي قطعة 4 من مجموع (ق ـ 12 ـ 16).

الحطاب : محمد بن محمد بن عبد الرحمان.

34 ـ شرح نظم ابن غازي في نظائر الرسالة.

خط مشرقي قطعة 2 من مجموع (ق 78 ـ 97).

35 ـ قرة العين بشرح ورقات إمام الحرمين.

خط مغربي. قطعة 2 من مجموع (ق 6 ـ 29).

36 ـ مواهب الجليل في شرح مختصر خليل.

ج 1 خط مغربي ق 411.

37 ـ نسخة ثانية. ق 226.

38 ـ حاشية علي رسالة ابن أبي زيد القيرواني.

خ مشرقي قطعة 1 من مجموع (ق 1 ـ 78).

حلولو : احمد بن عبد الرحمان اليزليتيني.

39 ـ الضياء اللامع في شرح جمع الجوامع.

نسخة كتبت عام 1038 هـ ق 210.

الخروبي : محمد بن علي الطرابلسي.

40 ـ شرح اصول الطريقة (لزروق).

خط مغربي. قطعة 1 من مجموع (ق 1 ـ 21).

41 ـ نسخة ثانية.

42 ـ نسخة ثالثة (كتبت عام 1010 هـ).

زروق : احمد بن احمد بن عيسى البرنسي.

43 ـ ارجوزة في عيوب النفوس وادويتها.

ن ـ مسعود بن علي الصنهاجي 1035 هـ.

خط مغربي قطعة 7 من مجموع (ق 83 ـ 96).

44 ـ بدع في التصوف.

خ مغربي قطعة 2 من مجموع (ق 195 ـ 264).

45 ـ رسالة من كلام زروق.

قطعة 3 من مجموع (ق ـ 265 ـ 267).
46 ـ رسالة من احمد زروق إلى عبد الملك بن سعيد وعبد الله المغراوي.
قطعة 4 من مجموع (ق ـ 2 ـ 13).
47 ـ شرح ارجوزة "الولدان للقرطبي".
ن ـ أبو الحسن الكراي 1057 هـ.
قطعة 3 من مجموع (ق 103 ـ 157).
48 ـ شرح حزب البحر (لأبي الحسن الشاذلي).
خط مغربي ق 32.
49 ـ نسخة ثانية (خط مشرقي).
50 ـ شرح القرطبية.
قطعة 2 من مجموع (ق 37 ـ 88).
51 ـ شرح المباحث الأصلية.
ن ـ عبد الغفار بن موسى الفيتوري 1001 هـ.
خط مغربي ق 70.
52 ـ كتاب في التصوف.
ن ـ احمد ابو ريشة 1124 هـ.
خط مغربي ق 24.
53 ـ نسخة ثانية.
54 ـ نسخة ثالثة.
55 ـ كتاب في الفقه (قطعة منه).

56 ـ كتاب في قواعد التصوف (قطعة منه) ق 53 .

57 ـ مفتاح السداد الفهمي في شرح (الارشاد الفقهي لابن عسكر البغدادي) .

قطعة منه خطها مشرقي ق 23 (تاريخها 899 هـ) .

58 ـ نسخة كاملة .

خطها مشرقي : كتبها عبد القادر بن محمد الشاذلي المؤذن 899 هـ (ق 288) .

59 ـ النصيحة الكافية لمن خصه الله بالعافية .

60 نسخة ثانية .

61 ـ وصية زروق .

62 ـ الوظيفة الزروقية .

العياشي : عبد الرحمان بن محمد بن عبد الرحمان .

63 ـ الأنوار السنية على الوظيفة الزروقية .

ن ـ محمد بن سالم بن سالم المانع 1163 هـ .

قطعة 1 من مجموع (ق 1 ـ 78) .

الغدامسي : محمد بن عمر .

64 ـ ارشاد خالقي ومصوري بشرح عقيدة الامام المقري .

ن ـ احمد بن محمد ابراهيم المراكشي ق 181 .

الغرياني : عبد الرحمان . . .

تعليق على تهذيب المدونة.

المسلاتي : رمضان بن حسين . . .

65 ـ نصرة الذاكرين على رد أقوال المعترضين.

ن ـ احمد بن الكبير 1145 هـ ق 29.

3 ـ مكتبة أبو القاسم محمد كرو

الأسمر : عبد السلام بن سليم الفيتوري.

66 ـ نصيحة المريدين للجماعة العروسين (المعروفة بالنصيحة الكبرى).

نسخة نقلت عن نسخة كتبها مباشرة عن الشيخ الأسمر الشيخ سالم الحامدي عام 978 هـ.

وهي قطعة من مجموع به أيضا :

67 ـ معلومات عن الشيخ الأسمر وتلاميذه وما وضعوه عنه من مؤلفات.

زروق : احمد بن احمد . . .

68 ـ مختصر على المقدمة الوغليسية.

قطعة 3 من المجموع نفسه.

69 ـ اغتنام القواعد في شرح العقائد.

نسخة كتبت عام 1324 هـ ص 138.

70 ـ شرح الحزب الكبير.

قطعة 6 من مجموع .
71 ـ ارجوزة في عيوب النفس .
72 ـ وصية الشيخ احمد زروق (قطعة 3 ق 18 بها اكثر من 600 بيت .
الغدامسي : احمد بن عبد الله بن أبي بكر بن أبي القاسم بن محمد .
73 ـ اتحاف المريد بشرح عقيدة ام البراهين .
فرغ المؤلف منها عام 1094 وفرغ ناسخها مبارك بن علي القفصي عام 1166 هـ .
الغرياني : محمد بن علي خليفة .
74 ـ حاشية على خطبة خليل .
ن ـ السعيدي بن علي 1199 هـ .
خط مغربي ق 114 .
75 ـ فهرست الغرياني .
ثبت بشيوخه وما قرأه عليهم وإجازاتهم له .
خط مغربي ق 24 .
76 ـ شرح البسملة .
قطعة 2 من مجموع (ق 22) .
77 ـ رسالة من الشيخ مرتضى الزبيدي في التعزية بوفاة الغرياني كتبها لأولاده الثلاثة .
البهلول : أحمد بن حسين. . . .

78 ـ درة العقائد.

وهي ارجوزة في التوحيد . . نظمها البهلول عام 1105 هـ.

قطعة 5 من مجموع كتب عام 1260 هـ (ص 5).

المكني : احمد بن محمد بن احمد.

79 ـ استدعاء كتبه (شعرا) باسمه عبد السلام بن عثمان التاجوري إلى الشيخ حسن اليوسفي عام 1101 هـ.

80 ـ جواب الاستدعاء بالاجازة شعرا كتبه محمد اليوسي باسم والده الحسن واجاز فيه شيوخ طرابلس ومعهم الشيخ النوري الصفاقسي (عام 1001 هـ).

قطعة من مجموع كتبه الشيخ (عبد القادر بن عبد القادر بن الزين المغربي الخالدي الميموني نزيل تونس عام 1244 هـ.

ملاحظات : 1 ـ الكتب رقم 66 . 67 . 68 . 72 . 73 .

موجودة بمكتبة جامعة طرابلس.

2 ـ الكتاب رقم 69 موجود بمكتبة جامعة بنغازي.

3 ـ باقي الأرقام من 70 حتى 80 .

موجود بمكتبتي.

رموز خ = خط ـ ن = نسخ ـ ق = ورقة.

الهوامش

(1) عن المكتبة العتيقة بالقيروان راجع :

أ ـ ابراهيم شبوح : سجل قديم لمكتبة جامع القيروان، مجلة معهد المخطوطات العربية. ج2 م2 ص 339 ـ 372 ـ ط. القاهرة 1957 .

ب ـ محمد البهلي النيال : المكتبة الأثرية بالقيروان ـ تونس 1963 .

(2) انظر عنهم المدارك للقاضي عياض ـ شجرة النور للشيخ مخلوف الاعلام للزركلي.

(3) القطعة التي نجت من الكوارث حققها ونشرها الشيخ محمد الشاذلي النيفر. وطبعت لأول مرة بتونس عام 1978 وتقع القطعة المطبوعة في الكتاب بين ص 113 ـ 237 ومعظم هذه الصفحات تعليقات وتخريجات. أما الأصل المخطوط فلا يزيد عن 18 ورقة من القالب الكبير، سطورها بين 28 ـ 30 مكتوبة على الرق آخر القرن الثالث بخط قيرواني غير منقط إلا في النادر ويؤكد المحقق أنها أقدم ما وصلنا من الآثار المخطوطة في الفقه والحديث.

(4) نعد الآن معجما بأسماء المؤلفين الليبيين ومخطوطاتهم في جميع المكتبات التونسية، عامة وخاصة، وسيتضمن، عند نشره، تفاصيل ضافية عن المؤلفات وأصحابها.

(5) مخطوطة الخزانة العامة بالرباط رقم 14185 .

(6) المجلد الثاني، راجع خاصة ص 1156 ـ 1158 .

(7) في المخطوطة كتب الناسخ أولا عدد ستة بالحروف ثم اصلحه برقم أربعة في أعلاه. وهو الصحيح.

(8) ص 82 ـ 83 من الكنش بخط جامعه المذكور.

(9) عنوان الكتيب : " رسالة في حكم السماع وفي وجوب كتابة "المصحف بالرسم العثماني" من تحقيق الشيخ محمد محفوظ. ط. بيروت 1986 .

(10) راجع صفحات 237 ـ 239 من طبعة الشيخ الطاهر الزاوي. ط. 2 طرابلس 1967 .

الملحق الثاني:

الحمد لله وبعد وجدت بظهر كتاب المحاضرات للشيخ الفاضل خاتمة المحققين سيدي الحسن اليوسي بخط
الشيخ خاتمة علماء محروسة مراكش ابي محمد عبد السلام بن عثمان من احفاد الشيخ سيدي عبد السلام
دفين ... ما هذا نصه الحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد وآله

يقول كاتبه عبد السلام بن عثمان لما ان حل بلدنا مراكش بلد الشيخ العلامة سيدي الحسن اليوسي
ابقى الله بركته كتبت له على لسان سيدي محمد بن ... استدعاء اجازة له وجاءت منه اجابة
بما نصه: ايا عالم اهل الزمان ومن أتى منه سلكى   وعلامة الدنيا جميعا بلا فخر

وقدوة ارباب المراتب والتقى   مجدد دين الله حقا بذا العصر
ابا شيخنا اليوسي يا شيخ وقته   وغرة اقطاب الوجود بذا الدهر
مقدم هذا المكتبي محمد   محبكم سرا وفي الخلق جهرا كل سر
يؤمل منكم ان تجيزوه بالذي   رويتم ورويتم من العلم والذكر
فان لم يكن اهلا لما رام منكم   فانكم اهل العطايا والخير
فمنوا باعطاء على من يحبكم   وان كان تحقيرا منه تدفعوا للغدر
ومهما تفضلتم بذاك فجمعوا   لاحبذا انه بدا الله من اهل ذا الكل
كمثل ابن عثمان المعلم ذي الحكم   وعندكم عبد السلام اخي البر
كذاك ابراهيم وهو ابن مصطفى   كذاك السجلماسي اخي سالم الصدر
كذاك علي وابن منصور المرتضى   وسائر عوائد على الخير والبر
كذاك علي عمر اهل فاس   وما ظل فيها الملقبه بالنوري
فيا ايها خير يا سيدي محمد الحسن   على ما ترى منكما وان نسيته بالفقر
فلا زلتم اهلا لكل فضيلة   ولا زال نور العقل في ارضكم يجري

فاجاب ابقه على لسان والده لانه كان ضعيفا بما نصه

ايا سيدا قد حاز كل فضيلة   وعمتم بالنعماء والخير والبر
ويا محرز المجد الذي فاح نشره   ومن جمع هذا العصر في باد ما ادري
محمد المكي ابن عالم عصره   محط رحال الفاضلين مدى الدهر

ومن

وقد بلغت تلك المعاني كأنها ... حلى زانها الصواغ من خالص التبر
وما رمته منا وإن كان مجملا ... وإن لم أكن أهلا فملتمس العذر
أقول وحمد الله أول منطقي ... وذخري في ذكر الله في السر والجهر
أجزتكم في كل ما قد رويته ... وما قلت قبل من نظام ومن نثر
كذا الشيخ محمد آخر الأجداد تبعهم ... أجاز لنا من غير شك بسند المسير
كذا الأجداد نحو بدر صفا قمر ... أبو الحسن النوري ذو المجد والبحر
وحدثتكم عن ذا الكل عن شيوخنا ... ذوي العلم والعرفان والمجد والقدر
ومن شاء يستجيب بهم سنة لنا ... تضيء بهم كالنجم الطالع الذي ...
على نهج أهل الاعتقاد في كل دورة ... من الجهل والتعطيل والعذر في الزكي
فنسأل رب العرش أن يبلغ المنا ... ويجلي شأن الفاضلين ومن يقتدي
بجاه النبي الهاشمي محمد ... سلام عليه ما أضاء صبح الفجر
وأتباعه والآل الكرام وصحبه ... عليهم سلام ما سرا دائم الذكر

وكتب عن إذن أبيه وسيده عبيد ربه العلي محمد بن الحسن البوسيبي كان الله له وأحسن بيوم الجمعة السادس والعشرين من شعبان أحدى وعشرة وألف انتهى

وبعده بخط الشيخ ما نصه صحيح ذلك وكتب الحسن بن مسعود البوسي كان الله له انتهى ومن خطه نقلت والحمد لله رب العالمين .

الحمد لله وحده في قصيدة فراجعتها ووجدت بخط أبيها وسيدنا الشيخ سيدي الحسن اليوسي وهي هذه

يارب باسمك العظيم الأعظم ... وبجلالك الكبير الأجسم
وبصفاتك وبالأسماء ... وبجميع كتب العظماء
وبكل ما عني به نبي ... أو ملك في الدهر أو وصي
وكل يوم على موجود ... يقوم وقائم مسعود
وبحبيبك النبي الأكرم ... وبخليلك أبينا إبراهيم
وبجميع الرسل والنبيين ... وبالملائكة أهل التمكين

سيدي علي عزوز من خلال كتاب مخطوط

عنوان هذا الحديث : "سيدي علي عزوز من خلال كتاب مخطوط" يحدد لنا منهج البحث والسير في موضوعه وجوانبه . . فهو أولا . . ليس سيرة أو تريخا لحياة سيدي علي عزوز بالمعنى الدقيق لهاتين الكلمتين. وهو ثانيا ليس تحليلا لفكره العلمي ومنهجه في التصوف والسلوك . . وهو ثالثا ليس اطارا لعصره . . وما تميز به من فتن وحروب داخلية وخارجية مهلكة . . ومن صراع على السلطة والحكم، ومن قمع وقهر للسكان . . وهو رابعا ليس كشفا لمظاهر التخلف الثقافي والاجتماعي والعلمي التي كانت سائدة وحدها في حياة المجتمع التونسي طوال القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين، السابع والثامن عشر الميلاديين . . وهما القرنان اللذان عاشا بينهما سيدي علي عزوز حياته في هذه الربوع .

نعم : هو ليس تحديدا لواحد من هذه الموضوعات الكبرى الأربعة . . ولكنه نتفٌ من جميعها وملامح وصور من عصر علي عزوز وحياته وما تميز به عصره وتقلبت فيه حياته في تلك الميادين والقضايا بوجه عام .

فمن هو سيدي علي عزوز ؟ وما هو هذا الكتاب المخطوط ؟ ومن مؤلفه ؟ وما العلاقة بين الرجلين ؟ وما موضوع الكتاب ومحتواه ؟ وما هي صورة سيدي علي عزوز في هذا الكتاب ؟ وهل يمثل هذا الكتاب شيئا من حياة وشخصية علي عزوز وعصره وثقافته ومجتمعه ؟

يقول مؤرخ التصوف الاسلامي بافريقية الشيخ المرحوم محمد البهلي النيال عن سيدي علي عزوز ما يلي :
"ولد في مدينة فاس واخذ الطريقة عن الشيخ أبي القاسم بن للوشه . . وهو الذي أشار عليه بالرحيل إلى تونس لبث علمه الباطني في اهلها، وباشارة منه ارتحل إلى الحج ولما رجع نزل بزغوان واشترى بها دارا لسكناه، والتف به اتباع، وكان في بداية امره يجمع الحطب من الغابة بنفسه لطبخ طعام اتباعه، وكان له ميعاد للذكر، وقد حضر ميعاده الأمير محمد باشا المعروف بالحفصي في جولة كانت له بزغوان، وتلقى منه اشارات اعتقد منها صلاحه فبنى له بجانب مسكنه زاويته المعروفة بزغوان وبها قبره" (1).

بهذه السطور القليلة لخص الشيخ النيال حياة سيدي علي عزوز مقارنا بينه وبين زميل له في التصوف وفي العمل باشارة شيخهما ابن للوشة وهو الزاهد العابد محمد المصطاري الوافد هو الاخر من المغرب والذي اختار بنزرت للاقامة بها وتأسيس

زاوية له فيها (2)، ولكن البهلي المعروف بالاقتضاب والتدقيق لم يفدنا بمعلومات اخرى اكثر أهمية عن الرجلين، وخاصة عن سيدي علي عزوز . . فهو لم يذكر لنا سنة ميلاده ولا سنة وفاته، ولا ما جرى له من احداث مختلفة وهامة بين تاريخي ولادته ووفاته.

ولئن تكفلت كتب اخرى بذلك . . فان سنة ميلاده لم يذكرها احد فيما توفر عندي من مصادر ومراجع رغم كثيرة عنه بالقياس إلى اعلام عصره الذين كان حظ الاكثرين منهم منطويا مبعثرة هنا وهناك.

على ان تاريخ وفاته مختلف فيه في بعض المراجع الحديثة ولكنه ثابت عند معاصريه ومن تلاهم (3) فهم يؤرخونها سنة 1122/1710، ويحددون شهرها بربيع الاول الموافق عامئذ لشهر ماي دون تحديد ليوم معين.

وقد عنى به، كما جرت العادة، احد مريديه وتلاميذه وهو الشيخ علي ارنووط فوضع عنه كتابا سجل فيه حياته ومناقبه، ولم نعثر عليه للآن ولكن معاصرا آخر لهما هو المؤرخ حسين خوجة (ت 1145/1732) قد نقل نتفا عامة وفقرات عديدة من هذه المنـاقب استغرقت من "ذيل بشائره" ست عشر صفحة (4) جميعها تتصل بخوارق سجلها عنه تلاميذه

وزائـروه وعدد من الذين اتصلوا به، وبين هؤلاء الأخيرين واحد من أقطاب عصره في العلم والتصوف، ممن قامت بينهما صحبة في العلم والسلوك مع مودة ومحبة، ومكاتبات وزيارات وهذا القطب هو الشيخ قاسم بن محمد ساسي التميمي البوني نسبة إلى مدينة بونة أي عنابة، وهو من عائلة برز فيها عدد كبير، في العلم والتصوف طوال القرنين الحادي والثاني عشر . .

نظرا لتشابه اسماء عدد من افراد هذه العائلة فيما بينهم، ومع اسماء أخرى مماثلة حملت هي أيضا لقب البوني منذ القرن الخامس الهجري ـ فان الخلط بينهم يقع عند كثير من الباحثين والمؤرخين، ويكثر الخلط خاصة بين الذين حملوا اسم احمد، على ان الشيخ قاسم صديق سيدي علي عزوز لم يحظ بعناية الـدارسـين والمؤرخين . . ومع ذلك فان له اهمية خاصة في مناقب سيدي علي عزوز وفي تاريخه وعصره، كما سيظهر لكم بعد قليل.

لنعـد إلى منـاقب سيدي علي عزوز، كما نقلهـا حسـين خوجة، فهي ـ على كثرتها ـ تتصف بالغرابة وتثير الدهشة، وتمتاز بالخوارق . . ومع ذلك فهي عنده ـ كما هي في نظر جميع معـاصريه ـ كرامـات باهـرة ميزه اللـه بها عن باقـي الـعـبـاد . . وقـد ثبتت لديهم بالتـواتـر والشهـادات

المتكررة . . مما لا مجال عندهم للشك فيها أو نفيها أو حتى النقاش حولها، وهي إلى ذلك دلالات ربانية على ولايته وقطبانيته.

ومن هذا القبيل ما جرى لصاحبنا المشار إليه سابقا، الشيخ قاسم بن محمد البوني وهو في طريقه إلى زيارة سيدي علي عزوز بزغوان قادما من مدينة عنابة.

ونظرا لأهمية الحادثة الخارقة التي جرت له فقد استهل بها حسين خوجة مناقب سيدي علي عزوز وكراماته قائلا : (5)

« فمن كراماته - نفعنا الله به - التي لا تعد ولا تحصى، ولا تحد ولا تستقصى. ولكن نذكر بعضها عمن يوثق به : خرج الأستاذ العالم سند العلماء والصالحين الشيخ سيدي أبو القاسم ابن ساسي، وهو مشهور من اكابر بلد بونة، قاصدا لزيارة الشيخ سيدي علي عزوز، فركب هو وخدامه واتباعه وأبناء عمه واصحابه يشيعونه. وكان الشيخ أبو القاسم المذكور يعد من الفراسين في ركوب الخيل، وكان تحته فرس، وبيده عكاز فيه سن حديد، فأخذ يسابق بعض بني عمه كعادة فراسين الخيل، فهرب أمامه، فركض هو في أثره، وأراد ان يشير بالعكاز إلى صاحبه، فانفلت من يده نحو ظهر ابن عمه، وكان ينتظر كيف تخرج من صدره، فاستغاث بالشيخ

سيدي علي عزوز، واجتمعوا علي الرجل المطعون، فلم يجدوا به اثرا ما، ثم إنهم فتشوا العكاز في الأرض، وكانت أرضا منطرحة، فلم يجدوا لها أثرا ولا خبرا، فاستبشروا بسلامة الرجل وفرحوا لهذه الكرامة التي لم يقع فيها ضرر، ثم إنهم جدوا في السير إلى ان بلغوا إلى بلد زغوان، واجتمعوا بالشيخ ـ رحمه الله ـ واخبروه بالقصة فحمد الله على سلامتهم، ثم ان الشيخ سيدي علي عزوز التفت إلى خلفه، واخرج لهم العكاز من وراء ظهره، فلما رآها الشيخ قاسم بن ساسي المذكور، وشاهد منه هذه الكرامة انكب على اقدام الشيخ وقبلها وشكر الله على ذلك ومدحه بقصيدة طويلة فمنها قوله :

أيقظ فؤادك فالحبيب دعانا فلـه على وجنتنا مسعانا
بع في رضاه النفس لا تبخل بها والأهل والاولاد والأوطانا
الله اكبر فاض نور أبي الحسن فغشى القلوب فزادها هيمانا
دم راقيا فلك اهنا ولك المنى يا ساكنا علم الهدى زغوانا »

ومن هذه الزيارة التي قام بها الشيخ قاسم البوني وبهذه الكرامة التي سجلها للشيخ علي عزوز ـ وقد جرت له وعاشها شخصيا ـ قامت بين الرجلين مودة كبرى واتصالات مستمرة عن طريق الرسائل والوفود المتبادلة .

ولئن لم تعن المصادر المعاصرة أو اللاحقة بهذه العلاقة بين الرجلين . . فان الشيخ قاسم البوني قد تحدث عنها وسجلها لنا في كتاب كامل . . خصص معظم صفحاته البالغة مائة صفحة للحديث عن اسرار التصوف ومصطلحاته ومفاهيمه عند السالكين العارفين . . بناء على رغبة ومراسلة من الشيخ عزوز.

ورغم ان هذا الكتاب لا يهتم الا بناحية السلوك والتصوف عند سيدي علي عزوز وعامة اهل التصوف، فاننا نستفيد منه معلومات اخرى عن حياته العامة وعن اقامته بزغوان . . من ذلك ان المصادر لا تذكر لنا بداية تاريخ اقامته بزغوان . . وانما تشير إلى أن اقامته بها كانت على مرحلتين الأولى عقب حجته الأولى، وكان خلالها مغمورا غير ظاهر الكرامات والاشعاع، والثانية عقب حجته الثانية ووفاة شيخه ابن للوشة.

ومن متابعتنا لعديد المصادر، ولتاريخ انتهاء الشيخ قاسم البوني من وضعه لكتابه نفهم ان سيدي علي عزوز قد استقر بزغوان في قدمته الثانية خلال العشرية الثامنة من القرن الحادي عشر، وبما أن وفاته كانت عام 1710/1122 فانه يكون قد عاش بزغوان اكثر من اربعين عاما، ويكون قد حل بها لأول مرة وهو شاب في مطلع العقد الثالث . . وعلى هذا فهو من المعمرين . . ويحتمل انه شارف التسعين عند وفاته.

ويزكي هذه الاحتمالات جملة من الأحداث الهامة التي سجلتها له مصادر حياته وكتب التاريخ التونسي والجزائري، وفي طليعة ذلك كتاب الشيخ قاسم البوني.

فما هو هذا الكتاب وكيف فكر صاحبه في تأليفه، وما غايته منه ؟

لقد علمنا قبل قليل الكرامة الخارقة التي سجلها قاسم البوني نفسه ورواها لنا حسين خوجة عن الثقاة من اهل العلم والرحالة القادمين من بونة (6) . . ويبدو أنها كانت في أول زيارة قام بها الشيخ البوني إلى زغوان . . ونكاد نجزم بان الزيارة حدثت قبل سنة الثمانين من القرن الحادي عشر . . وذلك للأسباب والادلة التالية . .

أولا : لا يمكن لشيخ عالم ومتصوف مثل قاسم البوني، أن يرحل من عنابة إلى زغوان للتبرك واخذ الطريقة عن سيدي علي عزوز . . . إلا لأن سيدي علي عزوز كان قد بلغ من الشهرة ومن الاشعاع والقطبانية ما حمل صيته إلى عنابة واقنع الشيخ البوني على القيام برحلته في موكب من الفرسان والاعيان ومن الاهل والأولاد، كما توضح لنا حادثة الكرامة السالفة، ومقدمة كتاب الشيخ البوني.

ثانيا : ان الشيخ البوني يحدد في نهاية كتابه سنة فراغه من تأليفه وهي سنة اربع وثمانين والف، ومعنى هذا ان العلاقة بين الرجلين هي أقدم من هذا التاريخ.

ثالثا : ان الشيخ قاسم يشير في مقدمة كتابه إلى تبادل للزيارة والمراسلة والوفود بين الرجلين، وبالطبع فان ذلك قد حدث قبل عام 1084 .

رابعا : تؤكد مقدمة الكتاب أن مؤلفه قد وضعه جوابا عن رسالة كتبها إليه سيدي علي عزوز وان هذه الرسالة قد كتبت عقب دعوة منه لسيدي علي عزوز لزيارة عنابة بل إن مقدمة الكتاب تؤكد أن الشيخ عزوز قد لبى الدعوة فعلا وقصد في موكب كبير زيارة عنابة . . وان وفد الدعوة الذي ارسله الشيخ قاسم كان بقيادة احد ابنائه . . ولأمر ما تراجع الشيخ عزوز عن اتمام الرحلة وعاد إلى زغوان بعد ان اقترب من الحدود وقد تأثر الشيخ قاسم من هذه العودة وهذا التراجع، وخشى ان تفسر عند العامة، بما يضر سمعته ومكانته العلمية والدينية . .

ويبدو أن سيدي علي عزوز اراد أن يختبر الشيخ البوني روحانيا وعلميا، فهو بتراجعه عن اتمام الزيارة قصد اختبار قدرة البوني النفسية على احتمال الصدمة وتأثيرها على سلوكه واقواله، ولكي يتأكد من ذلك ومن عمق معارف الشيخ البوني بعلوم الصوفية ضمن رسالة الاعتذار عن اتمام الزيارة جملة من الأسئلة والقضايا الروحانية والصوفية طلب منه ان يجيب عنها . . وهذا اختبار علمي ادرك مغزاه الشيخ البوني فبادر

بالجواب الذي تحول إلى كتاب كامل . . وكانه قابل التحدي بتحد مماثل . . وان برره بلغة لبقة ظاهرها تواضع واستعطاف ورجاء . . وباطنها حضور واعتداد بالنفس .

على ان تراجع الشيخ عزوز عن اتمام الرحلة وقد قطع في مسيرتها مسافة كبيرة يثير شكوكا اخرى غير التي تستنتج من مقدمة الكتاب . ولعلني لا افرط إذا انا قلت إنها تعود لاسباب سياسية واجتماعية .

وبما أننا لا نعلم تاريخ هذه الرحلة على التدقيق سوى انها حدثت قبل عام 1084 . أو في هذا العام نفسه فانني اميل إلى ان التراجع حدث بسبب فتنة داخلية بتونس أو الجزائر أو بالقطرين معا : ذلك ان القرن الحادي عشر كله تقريبا قد تميز بعدم الاستقرار وبكثرة وبضراوة الفتن والحروب الداخلية في تونس والجزائر وطرابلس كل على حدة وفيما بين هذه البلدان جميعا (7) فحكامها من الاتراك من دايات واغاوات وباشوية قد ضربوا الرقم القياسي في الخلاف والقتال والتنازع على السلطة وقد كان لسيدي علي عزوز نفسه دور متكرر وسعي دائم مع بعض معاصريه من اعيان العلماء لتهدئة الحالة واقناع الاطراف المتقاتلة بالركون إلى المصالحة والسلم .

وقد قام الشيخ عزوز شخصيا بسفارتين إلى عاصمة الجزائر في هذا الصدد (8).

على ان احتمالا آخر قد يفسر لنا عودة الشيخ عزوز عن اتمام الرحلة والزيارة للشيخ قاسم البوني وذلك ان عائلة البوني، ابتداء من الشيخ قاسم وأبيه وجده وكذلك أولاده واحفاده قد كانت ضالعة في خدمة مصالح حكام الجزائر الاتراك وفي استغلال مركزها العلمي والديني لخدمة مصالح هؤلاء الحكام الدمويين القهارين . . وكانوا ـ إلى ذلك ـ لا يتمتعون بالنزاهة المطلوبة والنظافة المفترضة في مثلهم (٩) وغير بعيد ان يكون الشيخ عزوز ـ وقد اقترب من بلادهم وخالط بعض مساكنيهم ـ قد علم بأمور لا يرتضيها من أهل السلوك فخشى ان تفسر زيارته بانها مساندة لهم وتزكية ومناصرة للشيخ قاسم فتراجع قبل التوغل في المرحلة الأخيرة من الرحلة.

وهنا قد يتبادر إلى ذهن السامع أن الشيخ عزوز كان قمة وحده في اجتناب الشبهات والبعد عن المنافع المادية والميل إلى التقشف التام وشظف العيش والزهد المطلق في الحياة.

شخصيا لا أظن ذلك، فهو على جلاله ووقاره العلمي والروحي والديني كان يمارس حياته بشكل طبيعي وينتفع بملاذ الحياة ومغانمها بأساليب مختلفة إن لم نقل بكل الأساليب والوسائل.

فقد ثبت أنه كان على علاقة قوية بالسلطة المركزية بتونس، فهو يذهب اليهم وهم ياتون إليه، كما قام لهم بمهمات عديدة منها قيادة سفارتين إلى الجزائر. كذلك كان له دور حاسم في قيام الدولة الحسينية عندما اختار العلماء والاعيان القائد حسين بن علي بايا لتونس عام 1117 هـ 1705 م وهو لاشك دور سياسي خطير نظرا للظروف العصيبة التي كانت تعيشها البلاد، وهو على كل حال دور ايجابي شريف يحسب له ويضاف إلى أمجاده.

كما نعلم أنه عاش متزوجا وأنجب أولادا استقر بعضهم بتونس واشتهر منهم جيلان أو ثلاثة (١٥) ونسلهم مستمر إلى الآن على أنه لم يكن في حياته الخاصة متقشفا أو خاوي الوفاض بل على عكس ذلك تماما . . وهذا معاصره المؤرخ حسين خوجة نفسه ينقل لنا ما يؤكد هذه الحقائق في نص املاه عليه أحد علماء تونس، كان قد اجتمع في مكة بمؤلف لكتاب عن التصوف ومراتب الصوفية وبينهم سيدي علي عزوز الذي وضعه المؤلف المكي في شتى المراتب الصوفية بما في ذلك مرتبة الزهد. وقد اعترض العالم التونسي على وصف الشيخ عزوز بالزهد لأن حالته بين الناس لم تكن كذلك. وفيما يلي نص الحوار بين الرجلين التونسي والمكي كما نقله حسين خوجة مباشرة من التونسي المجاور (١١)

(ومما املاه على الشيخ الامام ونقلته من خطه، وهو الشيخ العالم الفاضل سيدي يوسف امام حضرة الأمير في التاريخ قال : استدعاني يوما الشيخ البركة المعتقد السيد الشريف، صاحب القدر المنيف، السيد محمد البيتي بمكة المشرفة، قال : فلما صلينا العشاء بالحرم الشريف توجهت انا ورفيق لي، وهو اخونا الحاج محمد بن محمود إلى منزله، فلما دخل نزع ثيابه، وبقي في ثوب كتان، وشرع يقرأ في كتاب ألفه هو في طريق القوم ومنازلهم ومقاماتهم، وكل مرتبة أو مقام من مقاماتهم، يقول وهذه المرتبة مكث فيها/الشيخ عزوز الزغواني كذا وكذا إلى ان عدد رتبا كثيرة، فلما وصل إلى مرتبة الزهد قال : "وهذه المرتبة دام بها الشيخ عزوز كذا مدة" قال : فتبسمت، واطرقت رأسي، فقالي لي : مالك ؟ فقلت له : هذا الذي تذكره انا اعرف الناس به. أما ما تذكره من المراتب فذاك أمر لم نطلع عليه، ولم نعرفه، أما مرتبة الزهد، فلربما اطلعت على ما يخالف ذلك، قال : فحينئذ عليك بيانه، فقلت له : الشيخ ـ رحمه الله ـ كان يحب من يأتي اليه بشيء، وكانت بيته مملوءة اثاثا وثيابا، وقل ما يعطي لاحد منها شيئا، والدراهم والدنانير مخبوة عنده محفوظة، وربما كان يحاسب وكلاءه بنفسه بغاية التدقيق، وتفسد غالب الأشياء بطول المكث عنده، مع لباسه الرفيع، إلى غير ذلك. قال : فنظر إليّ الشيخ البيتي كالمستهزء، ثم دمعت عيناه،

وقال : انظن الزهد باستعمال الخشن من الثياب، واللباس، وعدم كسب الاثاث ؟ والله، يا ولدي، إن الشيخ ما في قلبه شيء من ذلك، وانما ذلك تدبير دنيوي، فإذا خلا مع ربه ما يخطره شيء من ذلك".

هكـذا وصـف حياة الـشـيخ عـزوز مـعـاصره التونسي . . ولكن الشيخ قاسم البوني يقدم لنا صورة اخرى في كتـابه عن صديقه الشيخ عزوز، فيقول في مقدمة كتابه متحـدثا عن عميق ارتباطه بالشيخ عزوز وما جمع بينهما من حب في الله وتعلق شديد وعميق بالروحانيات، ما نصه (١٤):

". . . لـمـا أن سبق في علم الله تعـالى الائتـلاف والاجتماع، وحصـل التـلاقي والانتفاع، بالشيخ الرباني، والـولي الـروحاني، ذي الأنوار السـاطعة، والاركان الجامعة والأوراد النـافعـة، والأحوال الحاكمة، والأشواق الدائمة، والأنفاس المحرقة، والكرامات الخارقة والتلاميذ السالكين، والأصحـاب الـواصلين المتـوصلين . . سراج الـدين، علي عُرِف عزوز، الفاسي المنشأ القاطن الآن ببلد زغوان من قطر افريقية حرس الله الجميع . وقد وقعت بيننا وبينه محبة في الله ومودة من أجله سبحانه، بمقتضى قوله صلى الله عليه وسلم (الأرواح جنود مجنده . . فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف) وذلك ايام رحلتنا إلى زيارة الرجال، وطلبنا المنحة

أيام الـوصـال . . فتألفت أرواحنا بمحبته، وعكفت قلوبنا على مودتـه، وتأنست اسرارنا بشهود حقيقته . . ومضت لنا معه ومع أصحابه أيام سعيدة، أنوارها مشرقة مديدة، تذكرنا بها العهد القديم، والود الأول السليم، وحصل لنا بها الأنس العظيم . . ووددنا أن لا يعقبها فراق، إلى يوم التلاق ».

ثم يصف الشيخ البـوني حنينـه لمجالس الشيخ عزوز، وكيف ارسل إليه ولـده مع وفد من المرابطين لدعوة الشيخ عزوز ومـرافقتـه لزيارة عنابة . . هذه الزيارة التي لم تتحقق يقول البوني (١٥)

". . . فلما تقضينا من ذلك بعض الأوطار، ورجعنا إلى الأوطـان والـديار، حركتنـا ايام الأشـواق، وتذكرنا مواطن التلاق، وعظيم الأنس بتلك الرفاق . . فارسلت ولدي مع بعض الفقـراء بقصـد ان يأتوا بالشيخ وأصحابه مع بعض اخواننا المحبيـن في الله إلى محلنا، لأنه كانت سبقت المواعدة بيننا وبينهم بذلك، فقدم الجميع . . . فلما أن صاروا في اثناء الطريق أصاب الشيخ ألم شديد منعه من الدخول إلى وطننا والـوصول إلى محلنا، واعتذر أيضا باعتذارات خفية يعلمها رب البرية . فتأسفنا على ما فاتنا من ذلك ورأينا أننا لا نصلح لما هنالك، وانكسر القلب وتوجه بهمة صادقة إلى حضرة الرب".

ويتخلص من هذا الاعتـذار وأثره في نفسه إلى ما طلبه الشيخ عزوز من شرح لكلامه واجابة عن اسئلة واستفهام عن اسرار الـروحـانيات عند الصوفية . . . مما أثار قريحة البوني للجواب ، فكانت الحصيلة هذا الكتاب . وهو وإن لم يعطه عنوانا محددا ، فان عبارة صغيرة فيه أوحت إلى ناسخيه باسمه الذي عرف به وهو : **شرح البوني على كلام سيدي على عزوز"** .

يقول البوني (14) .

" . . . ثم إن الشيخ حفظه الله ارسل مع ولدنا المذكور (15) كلاما من انشاءاته ، وأنفاس وارداته ، يشير به إلى أحوال الـرجـال ، وتنـوع وقايع الانزال ، ويُفهم منه أن تأخره عن القدوم إلينا إنما هو من ذلك القبيل ، الذي ليس على فاعله من حرج ولا سبيل ، لأنه ساكن تحت جريان احكام الأقدار ، وليس له مع الله تدبير ولا اختيار ، ولا تدخل أفعاله تحت ميزان العقـول والانـظار . . . وقد طلب مني شرحه وقلدني ايضاحه وفتحه . . . "

ولعل آخر جملة ختم بها المؤلف كتابه تلخص فحواه وتحدد محتواه ، فهو يقول :

" . . . هذا ما امكن من شرح هذا الكـلام وتخليصـه ، ويسر سبحانه بيانه وتلخيصه . وذلك على قدر فهمي وذوقي

وعلمي . . . لا على ما هو ما له أهــل من الكـمال وشرف الخصال. وأنا استغفر الله الحكيم الكريم الرحمان الرحيم من تجاسري على ذكـر احـوال الرجال ومقاماتهم وتعرضي لبيان صفاتهم ومنازلهم »(16).

وبهذه العبارة التي ختم بها الشيخ البوني كتابه عن شيخ زغوان سيدي علي عزوز نختم حديثنا عن البوني الذي يُظن أنـه توفي بعد 1116/1704 بينما عاش شيخ زغوان حتى ربيع الأول من عام 1122/مـاي 1710. وقـد نقـل لنـا صاحب الاتحاف وصفا جيدا وهاما عن موكب جنازته . . كما تحدث في مواطن كثـيرة بعنـاية وتقـدير عنـه، وخـاصة عن السفارات التي قام بها لدعم الصلح بين دايات تونس والجزائر فوضـع بسعيه هذا حدا لسفك الدماء وتقاتل الاشقاء. ولم يخـف صاحب الاتحـاف اعجـابـه به ولا اعتقاده في كراماته العجيبة. وقد انفرد بواحدة منها صاحبت سفارته الأولى إلى الجزائر. وإنه لمن الطريف نقلها في خاتمة هذا الحديث لننهي القول بعدها بوصف جنازته وموقف أهل زغوان من مساعي السلطة المركزية وسكان العاصمة الذين رغبوا في أن يدفن الشيخ عزوز في مدينة تونس . . .

قال صاحب الاتحاف :

"ولما دخل محمد باي في سنة 1106/1695 مدينة تونس

واسترجعها من محمد بن شكر والداي طاطار، اللذين نصبهما داي الجزائر شعبان خوجة، أولى الداي يعقوب ورتب العسكر في نواحي القصبة وحاصرها.

« وكان شعبان خوجة صاحب الجزائر لما قدم إلى تونس، عهد إلى محمد بن شكر والداي طاطار باعانتهما، مهما تحرك لهما محمد باي، فخشي ان يوفي لهما. فبادر بارسال جماعة من فضلاء البلاد وأعيان الديوان، منهم الشيخ أبو الغيث البكري أمام جامع الزيتونة والشيخ الاستاذ الصالح أبو الحسن سيدي علي عزوز، والشيخ المفتي أبو عبد الله محمد فتاته، ومحمد خوجة كاتب الديوان. وانتهوا إلى الجزائر في البحر، فكلموا صاحبها شعبان خوجة في الصلح الواجب بين المسلمين، وذكروه سطوة الله تعالى على من دعي إلى الصلح ولم يجب . . فازداد عتّوا، وعاملهم بقبيح الرّد، وأمرهم بالاقلاع في الحين، وحقق لهم انه منجد الداي طاطار لا محالة. وفي ذلك ما تواتر بالحاضرة، وان لم يذكره الوزير الكاتب أبو محمد حمودة بن عبد العزيز من كرامات سيدي علي عزوز، وذلك أنه قال لاصحابه حين خرجوا : "**والله لا ندخل بلادنا الا إذا أكلت من طعام موته**". ولما ركبوا البحر وأقلعوا، وقاربوا تونس، رمقوا الشيخ بعين انتقاد، فهاجت عليهم ريح شديدة ردتهم إلى مرسى الجزائر قسرا، فوجدوا

الجند ثار على شعبان خوجة، وقد قتلوه وأقاموا غيره. فرحّب بهم، وأكرم نزلهم، وعقدوا معه الصلح. ورجعوا لمخيمه باي مسرورين. وكفى الله المؤمنين القتال » (17).

ولصاحب الاتحاف وصف في غاية الدقة والايجاز لجنازة الشيخ عزوز وسبب دفنه بزغوان نختم به هذه الجولة القصيرة عن الشيخ عزوز وكتاب قاسم البوني. قال صاحب الأتحاف :

"وفي ربيع الأول من سنة (1122) اثنتين وعشرين ومائة والف (ماي 1710) توفي الولي الصالح سيدي علي عزوز، وهرع لجنازته أهل تونس، وكان الباي يومئذ مريضا، فبعث اخاه لشهود الجنازة، وطلب الناس (18) نقله إلى تونس، فأنف لذلك أهل زغوان، وأبوا إلا دفنه في موضع وفاته (19).

هوامش واحالات

1) الحقيقة التاريخية للتصوف الاسلامي : ص 298 ـ 299 ـ طبع تونس 1965.
2) نفس المرجع ص 299 وذيل البشائر 277 ـ 281 ط/تونس 1975 واستقر المصطاري ببنزرت عام 1083 وبنى زاويته في العام

الموالي، وحج تسع حجج توفي في آخرها بمكة عام 1103 هـ.
3) الاتحاف جـ 2 ص 102 . وممن توهم وفاته عام 1117 محقق كتاب "الاغاني التونسية" للصادق الرزقي، ومحقق تكميل الصلحاء . . .
4) من ص 287 ـ 302 ط تونس 1975 .
5) ذيل البشائر ص 289 ـ 290.
6) المرجع نفسه ص 290.
7) فعلا ـ امتلأت سنة 1084 أو ما قبلها بالفتن والاضطرابات والتقاتل على السلطة بين قادة العسكر الأتراك خاصة في القطر التونسي . . . وعلى الحدود مع الجزائر . . راجع الاتحاف جـ 2 من ص 42 . .
8) الاتحاف ج 2 ص 66 ـ 67 و 87.
9) راجع ما كتبه الدكتور أبو القاسم سعد الله في كتابه الهام : تاريخ الجزائر الثقافي من القرن 16 ـ إلى القرن 20 طبع الجزائر 1981 ج 2 ص 492 ـ 493.
10) ترجم صاحب الاتحاف لواحد من احفاده في قسم التراجم (ج 8 ص 20 ـ 21) وسماه هكذا : "أبو عبد الله محمد بن محمود بن قاسم بن حمودة عزوز". وقال : "تقدم بزاوية جده العارف بالله سيدي علي عزوز المتوفى سنة 1122 .
11) ذيل البشائر ص 297 ـ 298 .
12) المخطوط : في المقدمة.
13) المخطوط : في المقدمة.
14) المخطوط في المقدمة.

15) لقاسم البوني عدة أولاد لعل ولده الموفد هو احمد وهو من مشاهير عصره وأكثرهم تأليفا .

16) المخطوط : الخاتمة ص 100 .

17) ج 2 ص 66 ـ 67 .

18) يعني الناس الذين قدموا من تونس .

19) ج 2 ص 102 .

بسم الله الرحمن الرحيم . وصلى الله على سيدنا ونبينا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

الحمد لله الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى، وأحاط بالربوبية وأحصى كل شيء عددا، أطلع سحائب رحمته على رياض قلوب أحبته، فأنبتت من كل زوج كريم فيه تعرف أنه بهجة لمن اهتدى، ثم كشف لهم وأحجبهم عن قدس كماله وزهت جماله، فتاهوا فيما ظهر لهم من الحسن وبدا، فوقع بعضهم فوق بعض وجدا، فكلهم فانيهم في لطائف الشوق والصبابة، وجعلهم طرائق قددا، فهذا مشغوف بالهوى قلبه مصروف ما سكون له ولا هدوء [illegible] أبدا، وهذا وافقه بالأحباب، ينادي بالاشتياق، وقد صرح باسم محبوبه جهرا، وهذا طامع في اللقاء طال ما اشتفى، وقد وهب نفسه في المحبة والهوى وهذا المحجوب وبالبعد مفهوم، لم يستطع صبرا ولا جلدا، وهذا أجلسهم على البساط، وقد من له النشاط، وعمهم برحمته فضله، وما زال يستعد للعطاء كيلا ويدا، ولهذا وقع عند الحجاب، وراق له الشراب، ولذلك انقطع واتصل بالأحباب، وخلعت عليه من خلع الرضى حلة وبها دام، فسبحان من خص من شاء بما شاء، كل الأشياء بما يعلم وأنشأ في حكمه أحوال، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد خير من دعا إلى الله وهدى، الذي هو مفتاح الخيرات، ومنبع الكمالات، وسفير السعادات، وعلى آله وأصحابه الذين هم نجوم الاقتداء، وأئمة الاهتداء، صلاة وسلاما دائمين بدوام مداد، أما بعد فيقول العبد الفقير المعترف بالعجز والتقصير قاسم بن محمد [illegible] التميمي [illegible]

وابصرني في بعضهما وتني عجيب على سلوك من يبغي المستقيم مع اعراض عن ذلك والامر
والابلاغ منه ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم اسال الله سبحانه بوجهه الكريم
وبرسوله العظيم الذي عم الكائنات وشرفها وعظم سبحانه الفضل وان يمن ان يمن علينا
علينا بتوبة تامة ناصحة وهداية صالحة لم يبق معها ذنب صغير ولا كبير الا
سترته ولا مواخذة بشيء ولا مطالبة ولا مسايلة عنه ولا محاسبة وان انا ما منها الا بصالح
وعميم الكلاءة والنوال وعظيم العناية ولا نبال في الحال والمستقبل والمآل
وان يشمل معنى ذلك كل من انتما الينا وانتسبنا اليه او حبيناه في الله او احبنا فيه
بجاه عظيم الجاه سيدنا محمد الوسيلة العظمى لكل والطلب الاعظم وارتجاه صلى الله عليه
وسلم وبارك عليه وعلى اله الطاهرين الطيبين وصحابته المقتفين الاكرمين ومن تبعهم
باحسان الى يوم الدين والحمد لله رب العالمين وكان الفراغ من جمعه وتحصيله وتصحيحه
نسيله قبل صلاة العصر من يوم الخميس اواخر ثلاثة جمادى الاولى عام ١٠٨٤
والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا ان هدانا الله لقد جاءت رسل ربنا
بالحق سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين

كمل السفر المبارك بحمد الله تعالى وحسن عونه وتوفيقه الجميل وصلى الله على
سيدنا ونبينا ومولانا محمد وعلى اله وصحبه وسلم تسليما على يد كاتبه العبد
الرهين الفقير المغترف الذليل المعترف بالعجز والتقصير عبيد ربه محمد الصادق
ابن محمد بن محمد غفر الله له ولوالديه ولمشايخه ولمن
علمه ولجميع المسلمين والمسلمات والمومنين والمومنات
الاحياء منهم والاموات وكان الفراغ
منه يوم الاربعاء من ثلاثة
ربيع الاول
عام [illegible]

الصفحة الأخيرة من المخطوط

رسائل مرتضى الزبيدي
مؤلف تاج العروس

لعل أكثرنا مازال يذكر ما أتحفنا به شيخنا البحاثة الجليل الأستاذ محمد الفاسي، في الدورة الثالثة والخمسين (1) من بحث قيم عن العلاقات العلمية الوطيدة والعميقة بين الشيخ العلامة مرتضى الزبيدي ـ صاحب تاج العروس ـ وبين علماء المغرب وخاصة منهم علماء فاس، وبينهم العلامة ابن مالك عبد الواحد بن محمد الفاسي الذي أجازه الزبيدي فكانت إجازته موضوع البحث المذكور (2).

وقد تبسط شيخنا الفاسي في ترجمة جده إبن مالك وفي الحديث عن الزبيدي وعلاقاته الواسعة مع علماء المغرب الأقصى مما يؤكد أهمية تلك العلاقات التي هي جانب واحد من جوانب التواصل العلمي بل الوحدة الثقافية واللغوية بين المشرق والمغرب . .

ومن حسن الصدف أن اكتشفت في العام الموالي وثيقة أخرى ـ غير تلك الإجازة التي أتحفنا بها الشيخ الفاسي ـ وثيقة من نوع مختلف تضمنها مجموع خطي نفيس كان تائها ومغمورا في مكتبتي الخاصة . . وقد شغلتني عنه الشواغل الكثيرة والغفلة والنسيان . .

يتضمن المجموع مختارات عديدة من الرسائل والإجازات والأشعار . . اختارها ونسخها بقلمه عالم مغربي مغمور، (3) كان مقيما بتونس عام كتابتها 1244 هـ. وهذا المجموع (4) هو أقرب ما يكون إلى تأليف أدبي، وإن لم يوضح ذلك جامعه . . .

على أن أهم قسم في هذا المجموع هو القسم الثاني الذي تضمن عشرات الرسائل الشخصية الخاصة التي كتبها الزبيدي إلى صديق له بتونس عُرف في عصره بالعلم والصلاح والتقوى وكان مقعدا ملازما لسقيفة بيته . . وهو الشيخ أحمد بن عبد الله السوسي أحد علماء تونس في القرن الثاني عشر ومطلع الثالث عشر هجريا . .

ومعلوم أن الزبيدي قد توفي بالطاعون عام 1205 هـ أما صاحبه التونسي فكانت وفاته بعد الزبيدي بثلاثة سنوات (1208 = 1794) (5).

إن نفاسة هذه الرسائل تتمثل في :

أولا : انها صادرة من الشيخ الزبيدي نفسه إلى واحد من علماء تونس في أيامه . .

ثانيا : انها تتناول جوانب عديدة من حياة العصر العلمية والسياسية والاقتصادية كما سجلها وكاتب بها الزبيدي خليله وصاحبه التونسي.

ثالثا : انها توضح جوانب مختلفة من العلاقات الثقافية بين القاهرة وتونس، وأيضا بين المغرب والمشرق، خلال القرن الثاني عشر، وذلك بما تتحدث عنه من شؤون وشجون تتصل بالأدب والكتب وما كان بين العلماء من شواغل واهتمامات علمية وانسانية.

رابعا : انها توضح ، ولأول مرة، جوانب طريفة وخاصة جدا من حياة الزبيدي العائلية والشخصية لم يذكرها ـ فيما نعلم ـ أقرب تلاميذه المتصلين به واكثرهم معرفة بخصوصياته وهو المؤرخ الشهير عبد الرحمن الجبرتي. . . الذي، وإن حدثنا عن زوجة الزبيدي الأولى والثانية فانه أكد أن الزبيدي لم يرزق أولادا. ولكن الزبيدي يتحدث في رسائله بان الله قد رزقه ولدا وأنه سماه (عبد الله) تيمنا باسم والد صديقه التونسي، لما كان عليه هذا التونسي من صلاح وتقوى حملت الزبيدي على أن يلتمس منه ـ في معظم الرسائل ـ البركة والدعاء له ولابنه ولزوجته الأولى ـ أم ولده ـ وأن يستجيزه أيضا لنفسه ولابنه.

وفي هذا الجانب وحده ما يبرهن على طرافة هذه الرسائل وأهمتيهاالتاريخية والأدبية.

وخلافا لما تحدثت عنه المصادر المشرقية، وخاصة تاريخ

الجبرتي، من تهافت المغاربة ـ علماء وأمراء وعامة الناس ـ على الزبيدي طلبا لبركته والتماسا لرضاه ودعواته، حتى زعم الجبرتي بان الحجاج المغاربة كانوا يعتقدون أن حجهم يظل ناقصا إذا لم يزوروا الشيخ الزبيدي ويمنحهم رضاه، وبركته . . . ؟ ! خلافا لهذا الزعم فان رسائل الزبيدي تكشف لنا تهافته وخضوعه بل سذاجته أحيانا نحو هذا العالم التونسي المغربي الذي لم يكن في عصره من العلماء البارزين، كما لم يترك أثرا علميا واحدا.

كذلك تكشف لنا رسائل الزبيدي عن موقف مماثل نحو أمراء تونس من البايات، وكيف كان الزبيدي يبعث إليهم ـ من تلقاء نفسه ـ الهدايا النفيسة وقصائد المديح وإجازته العلمية. في حين يذكر هو نفسه مواقف معاكسة نحو أمراء مصر وصدور الخلافة (٥) الذين ـ كما يقول ـ كان يرفض هداياهم.

مهما يكن من أمر، فان عدد هذه الرسائل ـ على اختلاف حجمها ـ يتجاوز الخمسين رسالة، وهي تغطي زهاء العشر سنوات الأخيرة من حياة الزبيدي. وهي في اتجاه واحد أي من الزبيدي إلى صديقه التونسي، إذ يبدو أن صاحبه التونسي لم يحتفظ لنفسه بنسخة من رسائله للزبيدي.

ونـظرا لوقتنا المحدود، ولأنني أقوم حاليا بتحقيق مفصل لهذه الـرسـائـل تمهيدا لطبعهـا . . فاني أكتفي هنـا بتقديم معلومتـين جديدتـين مما تضمنتـه هذه الرسائل كدليل على أهميتها مع ملحق به نص رسالة هامة :

المعلومة الأولى : تؤكد أن الزبيدي ـ كما تحدث في رسائله اكثر من مرة ـ قد رزقه الله ولدا بعد طول انتظار ويأس، وأنه سماه ـ كما أشرت سابقا ـ عبد الله. وها هو يتحدث عنه فيقول :

« . . . وذكرت لكم في الكتاب الذي قبل هذا من قبل ولدي عبد الله، فقد تزايد لي في ليلة سبع وعشرين من شهر رمضان من شهـور سنة 1194 وسميته باسم والدكم المرحوم تبركا به ومحبة إليه وكنيته أبا الفضل. أسأل الله العظيم أن يجعله بارا بوالديه عالما عاملا محدثا صوفيا. ولقد جاءني بعد أن يئست وطـرق المشيب المفارق . . . فاحببت أن تشرفوه بالاجازة يسمو بها بين الأنام وتميمة يحملها يُحفظ من صوارف الأيام . . . » (٧)

ولكن هذا المولود لم يعش طويلا، ففي إحدى رسائله عام 1196 هـ يخبر بوفاته ويمكان دفنه وحزنه عليه حزنا شديدا حتى بنى قبرين حول قبره، واحـدا له والآخر لزوجته التي توفيت بالفعل عام 1198 هـ كما سجل ذلك الجبرتي وأكدته لنا رسائل الزبيدي مع تفاصيل أخرى.

المعلومة الثانية : أن الزبيدي كان يحب الشكلاطة ! ! ويبدو أنها لم تكن معروفة في القاهرة . . فكان صديقه التونسي يرسل له منها باستمرار، ربما كل شهر، حيث كان تبادل الرسائل بينهما شهريا وعلى مدى عشر سنوات. ففي رسالة متأخرة شكر الزبيدي صاحبه التونسي على مختلف الهدايا وشكره كذلك على الشكلاطة (8) وعلى الآلة الخاصة بصنعها والتي كانت مع الهدايا.

على أن الزبيدي كان بدوره يهادي صاحبه بنفائس الشرق وبالكتب التي يطلبها. ويتحدث إليه عن كثير من شجونه وعن أبحاثه العلمية وعن كل قسم أو جزء يكمله من شرحه لكتاب إحياء علوم الدين (9).

تعليقات وهوامش

1) انعقدت في ربيع عام 1987 .

2) عنوان البحث : « اجازة الشيخ مرتضى الزبيدي شارح القاموس للعلامة ابن مالك عبد الواحد الفاسي » وقد نشر في مجلة المجمع عدد 60 .

3) انظر عن المخطوط وعن الاجازات بحثنا السابق عن « المخطوطات الليبية في المكتبات التونسية » .

4) هو عبد القادر بن عبد القادر بن الزين المغربي الخالدي الميموني، كان حيا بتونس عام 1248 هـ .

5) ترجمته في الاتحاف لابن أبي الضياف ج 7 ص 27 ـ 28 .

6) صدور الخلافة : جمع صدر، والصدر هو كبير الوزراء في الدولة العثمانية . انظر رسالة الزبيدي الموالية لهذا البحث . وما اعلنه فيها حول صدر الخلافة الجديد في عهده ، وما تحدث به عنه لصديقه التونسي .

7) انظر باقي الرسالة في الملحق الموالي .

8) ورد ذلك في رسالة الزبيدي الملحقة بهذا البحث .

9) ألقي هذا البحث في الدورة السادسة والخمسين لمؤتمر مجمع اللغة العربية بالقاهرة (الجلسة الحادية عشرة يوم 1990/3/11) .

من رسائل الزبيدي

بسم الله الرحمن الرحيم
وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

من العبد الفقير إلى الله تعالى محمد مرتضى الحسيني غفر الله ذنوبه وستر عيوبه آمين.

إلى حبيبه ووليّه وصفيّه في الله ورسوله، سابق ميدان الاحسان، ذي الهمم القوية الاركان، والاخلاص الذي ظهر سرّة في العيان، والنجابة التي اقرّت بها الأقران، الشيخ الكامل المنطيق، والفيض الشامل جوده لكل فريق : سيدنا ومولانا واستاذنا وعمدتنا شهاب العناية سيدي احمد السوسي، لازالت مواد عافيته متصلة الدوام، وسماء صحته مستهلة الغمام. آمين.

وبعد : فاني احمد الله الذي لا إله إلا هو واصلّي على نبيّه محمد صلى الله عليه وسلم وأسأله لي وله المغفرة بمنه وكرمه. وانهي إلى شريف علومه ولطيف فهومه - بعد إهداء تحية وتسليم واشواق لا تحد، وادعية إلى صحائفه يقصر عنها الحد - انه بعد توجه حبكم الشاكر على فضلكم والناشر لمحاسنكم الحاج صالح جراد إلى ثغر الاسكندرية وحمله امانة الجواب،

مضى نحـــو عشرة أيام وإذا انـا بكتـاب من صديق لي في اسطنبول يمتّ إلى بسوابق الحب ويعتقد في كثيرا، يذكر فيه انتقـال الـوزير الأعـظم من دار الفناء إلى دار البقاء وتولية صاحبنا كان متوليا بمصر محمد باشا عزّت الوزارة العظمى.
فلما جلس على دست الحكم توجـه الصديق المذكور برسم التهنئة والسلام عليه في جملة من توجه. فذكر انه أول ما فاتحه في الكلام سيرة العبد الفقير، وقال بيني وبين السيد عهد اني إذا ولّيت الوزارة العظمى يلبي دعوتي ويجيب ندائي. فأجاب الصـديق المـذكـور بان حضرة السيد ما يقصر في طرفكم.
وراسلني المذكور يخبرني بذلك. فتحيرت حين سمعت هذا القول، وقلت: لاقوة ولا حول. وأنا مترقب لوصول الجواب من الأبواب، ولا أدري كيف يكون الخطاب. فاحببت ان اخبركم بما حصل لعلني ببركة دعواتكم المجابة اسلم من هذه المطالبات، وينخفض عني باعث المكدرات، وانفرد للاقبال إلى المـولى عز وجل خالصا من شوائب الموبقات. فان دولة الروم من داخل فيها سلب الراحات، وانني مذ يفعت جبلني الله سبحـانه على حب الانفراد وحبب إلي الخلوات، ولولا خدمتي لعلم السنّـة ـ الموجبة للنشر والافادة والاجتماع ـ ما فتحت الباب ولا اسمعت الخطاب، فالمسؤول حسن التوجه البـاطني إلى احـوال المحب المخلص، بعد قيام عذره واداء وظيفة شكره، عسى ان يجتمع شمله مع أهل الله وينكف

غرار عزمـه عن الـوقوع في الاشتباه. ولكل ميدان فرسان، والبشر من عوايدهـا القصور والنسيان، وتمت كلمات ربك صدقا وعدلا. لا إله إلا هو وعليه قصد السبيل.

وذكرت لكم في الكتاب، الذي قبل هذا من قبل، ولدي عبد الله، فقد تزايد لي في ليلة سبع وعشرين من شهر رمضان من شهور سنة 1194. وسميته باسم والدكم المرحوم تبركا به ومحبة إليه. وكنيته أبا الفضل. أسأل الله العظيم ان يجعله بارا بوالديه، عالما، عاملا، محدثا، صوفيا. ولقد جاءني بعد ان يأست وطرق المشيب المفارق وألم النذير وعلا القتير.

فاحببت ان تشرفوه بالاجازة يسمو بها بين الأنام، وتميمة بحملها يحفظ من صوارف الأيام. وتأخذ له كذلكم الاجازة ممن أحببتم من علماء البلاد، من الصلحاء والزهاد.

والـواصـل في طي هذا الكتاب إلى حضرته نبذة صغيرة كنـت جمعـتهـا سابقـا في السلوك على مشرب الطائفـــة النقشبندية. نفع الله بهم. تتشرف بحلول انظاركم عليها، ومسبحـة خضراء وطـاقية بيضاء ليصبح الاتصال بكل من الحـديثـين المسلسلين بمنـاولـة الأولى ولبس الثـانية. ولا تؤاخـذوني في قلة الأدب فانني محب والمحب دائـما في مقام الادلال بين التدلل والتذلل نقطة يحتار فيها العالم النحرير.

وعسى رشحة من مقاطر اقلام، تهدي نفحة من ريّا طيبة تذكر الانعام، بذلك المقام على مرور الأيام، وانتم في حفظ الملك العلام. وصلى الله على سيدنا محمد بدر الظلام، وآله وصحبه ما هدر حمام، وهطل ركام.

تحريرا في ليلة الاثنين 28 ربيع الآخر سنة 1195

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

من العبد الفقير الى الله تعالى محمد بن علي الحسيني غفر الله ذنوبه وستر عيوبه [illegible]

[illegible]

علي

نموذج مخطوط من الرسالة السابقة

على حبيد الانفراد وحب السير الخلوات وتمر الاخرميتي لعلم السنة الموجبة للمنشق

والاعتبار والاجتماع على منهج الباب والاستماع الخطاب في المسكوت حسن التوجه

الى المعنى الى احوال الحب المخلص بعد قيامه عنده ما اداه وكيفية تنكره عسى ان يجتمع

شمله مع اهل الله ويكشف عن اعين معنى الموضوع في الاشتباه ولكل ميدان فرسان

والسبق من عمر اتيح الغصور والنفسيات وتمت كلمات ربك صدقا وعدلا لا اله الا

هو وعليه قصد السبيل وذكرت لي في الكتاب الذي قبل هذا من قبل وليه عبد الله

مغرب زاه ابيدج في ليلة سبع وعشرين من شهر رمضان من شهور ١١٩٤ سنة وسميته

باسم والدكم المرحوم تبركا به ومحبة اليه وكنيته ابا الفضل اسال الله العظيم

ان يجعله بار ابو الدينه عالما عاملا محدثا صوفيا والفقه حيا بعد ان يأسن

وطرق المشيب المعارف والعلم التدبير وعلل الفتن في حيث اذا تشرع ما بالاجازة

فيسمو بها بين الاماثل ويثبت جملها من صوارم الايام وتاخذوا اليه

كذلك الاجازة ممن اجيبتم من علماء البلاد من الفلكي والزهاد والواصل في

طي هذا الكتاب الى حضرته نسخة صغيرة كتب جمعتها سابقا في السلوك على

مشرب الطريقة النقشبندية نفع الله بهم تنشرح بحلول انظاركم عليها

رسيحة حضرة وطريقة بفضل لبيع الاتفاق بكل من العو شير المسلسلين

مناوية [illegible] وقبل الثنائية ولا تواخذونا في فلتة [illegible] المحب

المحب [illegible] في مقام الادلال بين التدلل والتذلل نقطة يختار فيها العالم النحرير

يعسى [illegible] من مقاطع الاقلام [illegible] تنكر الانعام [illegible]

[illegible] والتمس في حسن [illegible] وصلى الله على سيدنا محمد خير الخلق

وآله وصحبه ما [illegible] في ليلة الاثنين ٢٥ ربيع الآخر سنة ١١٩٥

رحيـل الرواد

عبد السلام محمد هارون
عميد اللغة والتراث

نعت اخبار مصر في المدة الأخيرة وفاة العلامة الكبير والبحاثة القدير الأستاذ المرحوم عبد السلام محمد هارون .. الأمين العام لمجمع اللغة العربية في القاهرة.

ولا شك في ان معظم الباحثين والمدرسين للغة والآداب العربية بوجه خاص وللحضارة العربية الاسلامية عموما يعرفون جيدا من هو عبد السلام هارون، وما هي أعماله العلمية والأدبية التي لا يجاريه أو يضاهيه فيها أحد من معاصريه ممن هم في مستوى علمه وشهرته وانتاجه الغزير المتنوع.

كان آخر لقاء بيننا في اليوم الخامس من شهر مارس من العام الماضي وبالتحديد خلال أعمال المؤتمر السنوي للمجمع .. وهو المؤتمر الثالث والخمسون المنعقد بالقاهرة بين 2/23, 87/3/9 والذي تميز بغياب معظم الأعضاء التونسيين عن أعماله باستثناء عضوين اثنين حضر احدهما أيامه الأولى فقط وهو الشيخ الدكتور محمد الحبيب ابن الخوجة (عضو عامل منذ عام 1972) وتغيب كامل

الأسبوع الثاني للمؤتمر بسبب التزاماته العلمية الكثيرة في أماكن أخرى.

أما الحاضر الثاني فكان كاتب هذا المقال (عضو مراسل منذ عام 1972) الذي كان حضوره أيضا بعد غياب دام سنوات طويلة أي من عام 1974 .

حيوية وحضور

كان الفقيد عبد السلام هارون ـ رغم تقدم سنه ـ يتمتع بحيوية عجيبة وحضور عقلي واجتماعي متميز . . وكان ـ كعادته ـ دائم الحركة والعمل، بشوشا خلوقا مع كل من يلقاه أو يتحدث إليه . .

وبرغم كثرة مسؤولياته كأمين عام للمجمع وكثرة اسهامه العلمي خارج المجمع ومواصلته بحيوية فريدة تحقيق كتب التراث، ومتابعته البحث والكتابة، برغم ذلك كله كان يثابر على اتحاف أعضاء المجمع، في كل مؤتمر سنوي، ببحث طريف بديع يجمع فيه بين ألوان من ذخائر اللغة وروائع من نفائس تراثنا الغني بالجواهر والبدائع.

وكان ـ رحمه الله ـ مثابرا أيضا على تسمية هذه المكتشفات اللغوية والحضارية باسم « من كناشة النوادر »

وقد أسعدني بلطفه المعهود حين تفضل، في مؤتمر السنة الماضية، باهدائي الجزء الأول مما جمعه منها واخرجه في كتاب مستقل يحمل الاسم نفسه، وهو كتاب اعتبره شخصيا من نفائس المؤلفات الحديثة في الحضارة العربية.

وكم كان ـ رحمه الله ـ جم التواضع رحب الصدر حين جاء يشكرني بعد الجلسة التي قدم فيها آخر نوادره ومكتشفاته الأدبية والحضـارية، رغم تعليقي الـذي اتسم بشيء من الحماسة حول تميم بن المعز الصنهاجي الذي تحدث عنه في بحثه (1).

حياتـه

ولـد الفقيد المرحوم عبد السلام محمد هارون في مدينة الاسكنـدرية عام 1909. وهـو العام نفسه الذي ولد فيه شاعرنا العبقري المرحوم أبو القاسم الشابي.

ومن الاسكنـدرية، انتقـل الفقيد بحكم عمـل والـده وتنقلاته الوظيفية ـ إلى القاهرة. وفي العاشرة من عمره أتم حفظ القـرآن الكـريم ثم الحق بالمـدارس الأولية وفي عام 1921 نقل إلى الأزهر فدرس فيه العلوم الدينية واللغوية.

وبعد ثلاث سنوات أصبح طالبا بثانوية دار العلوم ليحصل في عام 1928 على شهادة « الباكالوريا » وبها أصبح طالبا في كلية « دار العلوم » ليتخرج فيها عام 1932 وليعين ـ رغم مستـواه العلمي العـالي . . مدرسا ابتدائيا ؟ ! حيث مكث صابـرا صامـدا ومثـابـرا على عمله التعليمي حتى عام 1945 . . حين صدر قرار يرفع عنه هذ الاجحاف وينصفه بعض الانصاف، وبهذا القرار عين أستاذا من صنف ـ أ ـ أي أقل من مساعد في اصطلاحنا ـ بجامعة الاسكندرية (كلية الآداب). وهذه هي المـرة الأولى والـوحيدة ـ في تاريخ الجامعات المصرية ـ التي نقل فيها مدرس من الابتدائي إلى متوسط السلك الجامعي مباشرة.

في سنة 1950 نقل عبد السلام هارون إلى كليته الأولى (دار العلوم) كأستاذ مساعد، وفي عام 1959 أصبح أستاذا ورئيسا لقسم النحو بنفس الكلية.

وفي عام 1966 كان ضمن نخبة من الجامعيين المصريين الـذين اختـيروا للاشراف على تأسيس جامعة الكويت وقد تولى هو تأسيس قسم اللغة العربية وقسم الدراسات العليا وبقي يشرف عليهما إلى عام 1975.

وخـلال المـدة نفسهـا، وقع اختياره عضوا عاملا (سنة

1969) بمجمع اللغة العربية في المكان الشاغر بوفاة الأستاذ المرحوم محمد فريد أبو حديد.

ومن هذا العام وهو دائم الانتاج والمشاركة في مؤتمرات المجمع ولجانه المتخصصة مما جعله محل تقدير واعجاب كبيرين من جميع زملائه في المجمع عربا ومصريين وأجانب، وهم الذين كانوا يتابعون من قبل وباهتمام خاص جهوده الفائقة والكثيفة في خدمة التراث العربي ـ آدابا ولغة ـ بالدراسة والتحقيق والنشر.

وفي يناير ـ عام 1984 تم انتخابه أمينا عاما للمجمع حيث عرف، بين أعضاء المجمع ولجانه وموظفيه، بدقته ومثابرته وحيويته النادرة.(2)

جهوده العلمية

بدأ اهتمام المرحوم عبد السلام هارون بتحقيق التراث في سن مبكرة جدا، لا ينصرف فيها أمثاله ـ عادة ـ لمثل هذا النوع من الدارسات العويصة الصعبة . . فقد حقق ودرس كتاب « متن أبي شجاع » وعني بضبط نصه وتصحيحه ومراجعته وهو في السادسة عشرة من عمره حيث تم طبعه عام 1925 وهي السنة نفسها التي نادى فيها بضرورة بعث

جمعيات للشبـان المسلمـين، وقد تحققت فكرته عقب ذلك بقليل (3).

ثم نشر أول جزء محقق من خزانة الأدب للبغدادي وهو في التـاسعـة عشرة من عمره . . وأكمل اربعة أجزاء منها وهو مايزال طالبا بدار العلوم .

وكان هذا وغيره من جهوده العلمية الموالية في تحقيق التراث قد حمل عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين على اختياره عام 1943 ليكون عضوا في « لجنة احياء تراث أبي العلاء المعـري » إلى جانب كبار المحققين المعروفين - يومئذ - مثل مصـطفـى السقـا وابـراهيم الابياري وعبـد الـرحيم محمود . . ومعلوم ان هذه اللجنة قد اخرجت في البداية كتابا ضخـما بعنـوان « **تعـريف القـدماء بأبي العلاء** » وكان بين المساهمين في أعمالها فقيدنا المرحوم حسن حسني عبد الوهاب . ثم تلته خمسة مجلدات جمعت شروح ديوان « **سقط الزند** » .

وفي عام 1981 نال فقيدنـا - باستحقاق لا مجاملة له - جائزة الملك فيصل العالمية في الأدب العربي . وهو في نظري احق واجدر من نال هذه الجائزة . وكان المجمع نفسه قد منحه منذ عام 1950 الجائزة الأولى في تحقيق التراث ونشره .

وكيف لا يستحق علامة جليل وبحاثة قدير كعبد السلام

هارون جائزة الملك فيصل وهو الذي تجاوزت كتب التراث التي حققها ـ وكلها من عيون الأدب العربي ـ المائة والعشرين كتابا . . . جميعها نشرها مشروحة محققة كأوفى وأدق ما يكون الشرح والتحقيق ؟ ! ويكفي ان نقول للتدليل على عظيم جهوده وعلو مكانته في هذا الميدان : ان بين هذه الكتب، تراث الجاحظ برمته تقريبا . . مثل :

ـ كتاب الحيوان (7 مجلدات) .
ـ البيان والتبين (4 مجلدات) .
ـ رسائل الجاحظ (4 مجلدات) جمع فيها 45 رسالة .
ـ كتاب العثمانية .
ـ كتاب البرهان .
ـ كتاب البرصان والعرجان والعميان والحولان .

ثم حقق ونشر عشرات المجلدات من بينها :

ـ نوادر المخطوطات العربية (جمع فيها 25 رسالة) من نفائس التراث ولمشاهير المؤلفين من المشرق والمغرب .
ـ خزانة الأدب للبغدادي (12 مجلدا) .
ـ معجم مقاييس اللغة لابن فارس (6 مجلدات) .
ـ كتاب سيبويه وفهارسه (5 مجلدات) .
ـ معجم شواهد العربية (مجلدان) .
ـ تهذيب اللغة للأزهري (مجلدان) .

- الاشتقاق لابن دريد (مجلدان) .
تحقيقات وتنبيهات على معجم لسان العرب لابن منظور.
- شرح ديوان الحماسة للمرزوقي (4 مجلدات) .
- مجالس ثعلب (مجلدان) .
- جمهرة انساب العرب لابن حزم .
- شرح القصائد السبع الطوال لابن الانباري .
- تهذيب سيرة ابن هشام .
- تهذيب احياء علوم الدين للغزالي .
- مجالس العلماء للزجاجي وأماليه .
- همزيات أبي تمام . .

أما أعماله الأخرى في غير التحقيق والنشر، فمنها :
- الميسر والازلام ، بحث تاريخي لغوي أدبي اجتماعي .
- الأساليب الانشائية في النحو العربي .
- الألف المختارة من صحيح البخاري .
- فهارس المخصص لابن سيده
- فهارس معجم تهذيب اللغة للأزهري .
تحقيق النصوص ونشرها .

ومن آخر أعماله المطبوعة « كناشة النوادر » الذي سبق الحديث عنه إلى غير ذلك من العناوين العديدة الأخرى . . سواء منها الكتب المبتكرة أو كتب التراث . . (٤)

ولا يفوتني هنا ان أشير إلى جهوده وكلماته في مؤتمرات المجمع ولجانه . . وكلها متناثرة كالازهار الدائمة العطر في منشورات المجمع ومحاضر جلساته.

ورغم أنه لم يحصل على لقب « دكتور » من أي جامعة، وهو اللقب الذي فتنت به وتعصبت له الكثرة الكاثرة من أهل العصر، فانه كان محل تقدير خاص وتنويه عالي المستوى لدى معظم الجامعات العربية. وليس أدل على ذلك من انه دعي للمشاركة في مناقشة ما يزيد عن ثمانين رسالة جامعية ! ؟ فأين من هذه المعاني كلياتنا ومعاهدنا التونسية العليا ؟ !

رحم الله فقيدنا العلامة عبد السلام هارون . . وعطّر ذكره وأجزل ثوابه فقد كان نسيج وحده، وآية عصره وفخر أمته. وعوض الله مجمعنا وثقافتنا وتراثنا عنه بالصبر الجميل والأمل الكبير في ان يمتع الله بالصحة الكاملة والعافية الشاملة والعمر الطويل استاذنا الجليل الدكتور ابراهيم مدكور رئيس المجمع وكافة أعضائه والعاملين به.

هوامش

1) الحلقة الثامنة من « كناشة النوادر » ـ بخطه وقد القيت في جلسة يوم 87/3/2. أما القسم المطبوع فقد حوى خمس حلقات (1 ـ 5).

2) المعهود في كل المجامع العربية وغيرها ان خطة الرئيس ونائبه والأمين العام

وكـذلك الأعضاء ـ عاملين ومراسلين ـ لا يقع اختيارهم من طرف السلطة المشرفة بل يجري انتخابهم من طرف المجلس العلمي في جلسة خاصة، فمتى يكون لنا مجمع في هذا المستوى ؟ !

3) انظر ص 34 من كتابنا (محمد الخضر حسين) .

4) اقتبسنا، بتصرف خاص، عناصر الترجمة الكبرى وقائمة مؤلفاته من كتاب « المجمعيون في خمسين عاما » للأستاذ الدكتور محمد مهدي علام ط 1986 ، وأيضا من قائمة مؤلفات الفقيد الواردة في آخر صفحات « كناشة النوادر» ط 1985 .

العلامة عبد الله كنون
مجـدد التـراث والأصالـة

نعت أخبـار المغرب الشقيق وفاةالعلامة الكبير والبحاثة المجمعي الشيخ عبـد الله كنـون عن عمـر ينـاهز الثمانين عاما . . قضى معظمها (65 سنة) في خدمة العلم والأدب وفي الـدفـاع عن الاسـلام والوطن. كان منذ فجر شبابه ـ الخـامسة عشرة من عمره ـ يساهم بقلمه ونضاله دفاعا عن الوطن وايقاظا للوعي وأحياء للتراث وانتاجا في شتى مجالات الأدب والمعرفة.

كيف عرفتـه ؟

تعـرفت عليه لأول مرة عام 1962 عنـدمـا زرت مدينة طنجـة وحـظيت باستقبـالـه لي في منـزله. ومنذ هذا اللقاء وصـلات الود والمراسلة وتبادل الكتب متصلة بيننا. كذلك كنت رفيقه وحفيا به عندما زار تونس عام 1972 للمشاركة في الملتقى الثاني لابن منظور بقفصة. هذا فضلا عن لقاءاتنا بمجمع اللغة العربية في القاهرة بداية من عام 1973 حتى آخر لقاء بها عام 1987 حيث شعرت عامئذ بثقل السنين عليه

كنون والشابي

ومما يسجل له باعتزاز ان شاعرنا الكبير « أبو القاسم الشابي » قد درس شعر كنون وتحدث عنه وقال رأيه فيه عام 1930 ـ وكان كلاهما عامئذ في العشرين من عمره ـ وذلك في محاضرة أعدها الشابي عن شعراء الشباب في المغرب الأقصى (1) وهي محاضرة لم يتح لها ان تلقى في موعدها بسبب غياب الجمهور، كما أنها لم تنشر حتى الآن (2).

نشأته

هو عبد الله بن عبد الصمد بن التهامي بن المدني كنون الحسني.

ولد بمدينة فاس يوم 30 شعبان عام 1326 (27 سبتمبر 1908). وبعد فرض الحماية على المغرب انتقل به والده ـ وكان من كبار العلماء ـ مع باقي الأسرة إلى مدينة طنجة التي لم تشملها الحماية عن قصد ليفرض عليها لاحقا نظام دولي. كان عبد الله في السادسة من عمره، وكان في عزم والده الهجرة إلى الشرق حتى لا يبقى في أرض يحكمها الغاصب الأجنبي. غير ان اندلاع الحرب العالمية الأولى حال بين الأسرة وبين الانتقال إلى الشرق . . . وهكذا استقرت

العائلة نهائيا بطنجة التي كان وضعها الدولي اهون مما عليه باقي التراب المغربي الذي تقاسمه الاستعماران الفرنسي والأسباني كما هو معروف.

تعلمه وتكوينه

تلقى تعليما تقليديا أول الأمر، فحفظ القرآن الكريم والتحق بجامعة القرويين بفاس حيث استوعب علومها الدينية والأدبية واللغوية على جهابذة عصره، وبينهم والده. ولعناية الوالد الخاصة به عمل على توسيع افاقه العلمية بدروس خاصة به في الثقافة العامة وفي اللغتين الفرنسية والأسبانية. ولكن معارفه الحقيقية وموسوعيته، التي تميز بها في حياته العلمية وبين معاصريه، قد كونها بنفسه من خلال مطالعاته المكثفة وسعيه المستمر وراء الجديد من الكتب مع استيعابه القديم وهضمه والافادة منه. وقد اعانه على ذلك كله ـ كما يقول هو نفسه ـ « توجيه والده والبيئة العلمية التي نشأ فيها، وخزائن الكتب الكثيرة المتوارثة عن الآباء والأجداد » مما كان له « الأثر الكبير في تكوينه » (3)

الشاب الطلعة

منذ شبابه الباكر وهو مهوس بالمطالعة والكتابة ونظم الشعر وتأليف الكتب. فقد قال الشعروهو دون الخامسة عشرة، كما ألف كتابا مدرسيا وهو في السادسة عشرة. ولم يبلغ العشرين حتى كان كاتبا معروفا وشاعرا ينشر شعره بين الناس. مما حمل مؤلف كتاب « **الأدب العربي في المغرب الأقصى** » الأستاذ محمد بن العباس القباج على ان يختار طائفة من شعره ويترجم له (مع صورته) في الجزء الثاني من كتابه المخصص لشعراء الشباب (4) وكان ذلك عام 1929 وهو في الحادية والعشرين. وقد تولى الشابي النظر في شعره ـ وهما تربان ـ من خلال المحاضرة المشار إليها سابقا.

الطموح المستمر

ينتمي الشيخ كنون إلى عائلة مغربية عريقة في الشرف والمجد والمكانة العلمية على مدى أجيال وقرون. وهذا الانتماء الأثيل هو الذي كان يغذي طموحه ويزيد في تطلعه إلى المزيد من الأعمال والانجازات العلمية والاسلامية والوطنية. وهذه الحياة العريضة الخصبة الممتدة ـ في عطائها وانتاجها ـ على مدى سبعين عاما، لا يستوعبها ويفي بحقها الا مجلد

ضخم. ولكن ما لا يدرك كله لا يترك كله، لهذا نكتفي هنا بجملة من الملامح والجوانب من حياته العامة والعلمية والادارية، وعلى الأخص نضاله عن الوطن ومساهماته في تحريره ونهضته معا.

نضاله الوطني

انتظم منذ شبابه في «كتلة العمل الوطني» التي تفرعت منها جميع الأحزاب المغربية المعروفة في عهد الحماية. ويبقي طوال عهد الاستعمار «صلة الوصل في طنجة بين المكافحين والوطنين في الشمال والجنوب. وكذلك بين الحركات الوطنية المغربية في مصر وهيئاتها في المغرب العربي».

وتقديرا له ولنضاله الوطني اسند إليه منصب أول حاكم مغربي لمدينة طنجة بعد الاستقلال فتولى بنفسه تصفية الحكم الدولي لها واثاره الاستعمارية بها. وهكذا كانت عودة طنجة إلى الوطن الأم عام 1957 على يديه.

وكان قبل ذلك قد شغل منصب وزير العدل في حكومة الشمال.

في التعليم

بدأ حياته العامة مدرسا في فجر شبابه وظل ينمو ويصعد حتى أصبح من جهابذة علماء القرويين وعضوا في مجالسها العلمية فضلا عن التدريس في كلية أصول الدين. وإلى ذلك تولى ادارة المعهد الديني بطنجة وادارة معهد مولاي الحسن للأبحاث بتطوان مع التدريس بالمعهد العالي بها. كما أسس مدرسة حرة للبنات واخرى للبنين.

في الصحافــة

فضلا عن الصحف التي تولى الاشراف عليها مثل مجلة « لسـان الدين » ثماني سنوات - وجريدة الميثاق لسان رابطة علماء المغـرب، نشر وساهم على مدى ستين عاما في معظم مجلات وصحف المغرب وتونس ومصر وسوريا والعراق وغيرها من البلاد العربية لاسيما في المجلات الجامعية والمجمعية.

عضـو المجامـع

منذ عام 1961 ، تم تعيينه عضوا عاملا بمجمع اللغة العربية في القـاهـرة وفي مجمـع البحـوث الاسـلامية بالأزهر، والمجلس

الاسلامي الأعلى. وعقب ذلك انتخب عضوا في معظم المجامع العربية الأخرى كمجمع دمشق والمجمع الأردني. وبالطبع هو عضو عامل ونشيط في كل الهيئات العلمية بالمغرب مثل الأكاديمية الملكية المغربية والمجلس العلمي بجامعة القرويين. كما انه الأمين العام لرابطة علماء المغرب منذ تأسيسها.

الباحث الأديب

طرافة الشيخ كنون تظهر في ثقافته العالية وبحوثه المجددة ومساهماته الكبيرة في احياء التراث والتعريف بأدب وأدباء الأندلس والمغرب . . . وقد نوه بأعماله العلمية الجليلة ومؤلفاته المفيدة التي ناهزت المائة عنوان، بين كتاب كبير متعدد الأجزاء وبين البحوث والرسائل الصغيرة، نوه به العديد من كبار العلماء والأدباء والمستشرقين أمثال طه حسين وشوقي ضيف وعدنان الخطيب والدكتور ابراهيم مدكور وأنور الجندي وبروكلمان وشكيب ارسلان.

مؤلفاته

قلت انها تزيد عن المائة، من الكتب والرسائل، عدا البحوث والمقالات التي قد تصل إلى الألف . . ولهذا يعسر

ان نأتي باسمائها كافة في هذه المناسبة وهذا المجال المحدود، ولهذا سنكتفي بعينات منها للدلالة عليها مع اشارة إلى ان جل اهتمامه كان مركزا على التعريف برجال العلم والأدب قديما وحديثا. وكتابه الفائق النبوغ المغربي باجزائه الثلاثة ودراساته المكثفة عن « مشاهير رجال المغرب». بحلقاتها الأربعين شاهدة على علمه الغزير وحرصه الشديد على إظهار دور المغاربة في الحضارة الاسلامية ومكانتهم في تاريخ الفكر والأدب العربيين.

وتأكيدا لكل ذلك كان فرحه كبيرا عندما تعرف على مشروع كمشروعه كنت قد بدأته عام 1965 وأهديت إليه حلقته الأولى، وهي دراسة عن الشاعر التونسي، الأندلسي الأصل . . عبد الرزاق كرباكه » فكتب يقول :

« . . . وبعد، فقد وصلني ما تكرمتم به من كتاب الأدب الفارسي (5) والحلقة الأولى من كتابكم (اعلام المغرب) . . . وانه لمشروع جد مفيد لأنه يملأ فراغا في المكتبة العربية لا يسده إلا أبناء المغرب. وقد ان الآوان لأن نقوم بهذه المهمة والا حق علينا القول اننا اكثر اهمالا لتاريخنا وتضييعا لرجالنا، فارجو لكم التوفيق والثبات . . . (6)

كنون الموسوعي

تتنوع مؤلفات الشيخ كنون بين شتى مجالات المعرفة، فمن التاريخ إلى الدين إلى الحضارة واللغة بمختلف علومها والأدب وتاريخه والشعر واعلامه والفقهاء ومواقفهم الدينية والأدبية (7) وهو في جميع أعماله لا يقلد ولا يجتر بل يبتكر أو يضيف أو يسلط الأضواء على جوانب لم يبحثها غيره من قبل، ولعل القارئ سيدرك من خلال العناوين التالية ـ وهي عينات ـ تلك الملاحظات والخصائص التي وصفنا بها كتبه وأبحاثه المختلفة، وسيرى من خلالها أيضا اتساع معارف الشيخ كنون واحاطته الشاسعة بتراثنا الحضاري والأدبي والديني وبحياتنا المعاصرة وحاجتها الأكيدة إلى الأحياء والتجديد.

في التـراث

1) ديوان ملك غرناطة يوسف الثالث.
2) رسائل سعدية.
3) شرح الأربعين الطبية لعبد اللطيف البغدادي.
4) مناهل الصفاء في أخبار الملوك الشرفا للفشتالي.

5) قواعد الاسلام للقاضي عياض .
6) عجالة المبتدي في الانساب للحازمي .

في الأدب والتاريخ

1) النبوغ المغربي (3 ج).
2) لوحات شعرية (ديوانه)
3) واحة الفكر
4) أحاديث عن الأدب المغربي الحديث.
5) من أدبنا الشعبي .
6) مدخل إلى تاريخ المغرب .
7) نظرات في منجد الآداب والاعلام .

الاسلاميات

1) مفاهيم اسلامية .
2) جولات في الفكر الاسلامي .
3) منطلقات اسلامية .
4) فضيحة المبشرين .
5) على درب الاسلام .
6) اسلام رائد .

مشاهير المغرب

1) الشريف الأدريسي.
2) عبد الواحد المراكشي.
3) أبو القاسم الزياني.
4) عبد العزيز الفشتالي.
5) الوزير ابن ادريس.

هوامـــش

1) راجع عن هذه المحاضرة ـ يوميات الشابي ـ يومية 1930/1/13.

2) عندي النسخة الوحيدة من هذه المحاضرة وهي بخط الشابي وسنقوم بنشرها.

3) من رسالة شخصية.

4) بين صفحات 36 ـ 43.

5) من تأليف الأستـاذ علي الشـابي. وكنت أرسل له الجديد من المطبوعات التونسية.

6) من رسالة منه مؤرخة 1966/2/8.

7) مثل كتابه ـ أدب الفقهاء.

المراجع

1) رسائله .
2)مؤلفاته
3) منشورات مجامع القاهرة ودمشق والأردن .

---

* نشرت في ملحق الحرية الثقافي الأسبوعي عدد 1989/9/14 .

مئوية محمد بيرم الخامس

ان ما استمعنا إليه في هذه الندوة من بحوث جادة مركزة رصينـة ومتنوعة حول فكر بيرم الاصلاحي ومؤلفاته المبتكرة ومواقفه الشجاعة في مواجهة الفساد والظلم السائدين في عصره . . .

ومـا احيطت به هذه الذكرى من مظاهر مختلفة لتكريم محمـد بيرم الخـامس ولـلاحاطة بجوانب شخصيته وانتاجه وعصره ومعـاصريه بالبحث والصـورة. وبالتحقيق والنشر، وبـالنقـد والتحليل والاحصـاء والدرس . . . ان كل ذلك يقودنا إلى جملة من الحقائق الباهرة والنتائج الهامة التالية :

أولا : ان تونس الجـديدة، في عهد الحرية والوعي قد استعـادت ذاكـرتهـا التـاريخية واستيقظ ضمـيرهـا الـوطني فاسترجعت أو تكاد هويتها الأصلية من خلال وعيها بنفسها وبعناصر كينونتها وكنوز ماضيها وطموحات مستقبلها .

ثانيا : ان اعادة الاعتبار لكل المهملين المنسيين من رجال الكفـاح والاصــلاح ومن العلماء والأدبــاء . . . ليس - في حصيلته النهائية - كسبا ومنفعة لأولئك المعترف بهم، بل هو، كسب ومنفعة لأجيالنا الحاضرة والقادمة، لأنه يميزها بالمعرفة

بدل الجهل وبالتواصل بين الأجيال عوض القطيعة والتقاطع وبـالاخلاص لذاتها ومصيرها وارتباطها بجذورها وحقيقتها عوض الانفصام والذوبان أو الضياع والتشتت الحضاري .

ثالثـا : لقـد اثبتت النـدوة، من خلال الـدراسـات والمنشـورات والانجـازات الأخـرى، اننـا ـ اعني جهـات الاشراف ـ لم نخـطىء حين قرنـا الاحتفـال بمئـوية وفاة بيرم . . وان جهـودنـا الكثيرة في هذا الاحتفـال لم تذهب سدى . إذ الرجل ـ كما دلت عليه بحوث الندوة ـ يستحق فعـلا هذه الجهـود وذلك العناء . . لا من باب البر والوفاء والعـرفـان ، فهو بتاريخه واثاره غني عن التجديف والتشدق بمثل هذه الشعارات ، وانما لأنه ـ رغم قصر عمره نسبيا ـ قد تميز عن جيله بطرافـة خاصة وحصافة لامعة وريادة فذة في مجالات الاصـلاح والعلم والنضـال من أجـل وطنـه أولا والمسلمين ثانيا وقناعاته أيضا .

رابعا : ان محمد بيرم الخامس لم يع مشاكل عصره وقضايا شعبه وأمته من خلال الصراع السياسي والعسكري القائم بين عالم الاسـلام والعالم الأوروبي المسيحـي فقط . . ، . . بل أدرك ـ وبعمق كبير ـ سر هوان المسلمين وانحطاطهم وجوهر ذلـك الصراع نفسـه ،بينهم وبين أوربا القاهرة لهم بقوة علمها

وعقلها وحضارتها الجديدة. وذلك الجوهر هو جمود المسلمين العقلي وتخلفهم الحضاري والعلمي.

ومن هنا نراه يدافع في كل مناسبة عن مشاريع النهضة ويدعو بل ويساهم في التحديث ويحث على العلوم والصناعة وينادي بالشورى والاصلاح السياسي واقامة ما نسميه اليوم بدولة القانون والمؤسسات عوض دولة الاطلاق والقمع والقهر.

هاكم هذا الموقف الرائع الذي نقله عنه لنا وحكاه الشيخ محمد السنوسي في رحلته الحجازية.

قال السنوسي في الجزء الثاني ص 103 :

« وقد أخبرني الشيخ محمد بيرم أنه عندما تشرف بمقابلة السلطان « عبد الحميد » سأله ـ أي السلطان ـ هل يرى من دواء لسياسة الأمة ؟ فكان جوابه ـ أي بيرم ـ أن الدواء هو إعطاء الأمة حريتها باقامة المجالس التي تحمل مسؤوليتها ويستريح معها الجناب السلطاني (!!) فكانت هاته الكلمة على المسامع السلطانية من أكبر الكبر، حتى انه بعد خروجه قال السلطان : إن الأمراض العصبية أثرت في فكر الرجل » ؟ !.

هكذا كانت نصيحة بيرم لسلطان المسلمين وهو من كبار الطغاة وملوك الاطلاق والقهر. وهاهم المسلمون والعرب في جميع اقطارهم مازالوا حتى اليوم، وربما لأجيال قادمة، يطالبون بتنفيذ تلك النصيحة التي يعبرون عنها اليوم في لغة عصرنا بالحرية والديمقراطية ! .

أما مواقف بيرم الأخرى، وهي بالعشرات ان لم تكن بالمئات، فكلها تشعرك بذكاء الرجل وقوة عقله ونفاذ بصيرته وتشوفه الثاقب لروح المستقبل . . وكل ذلك يفصح عما كان يملأ قلبه ومشاعره وضميره من حب للاصلاح وغيرة على بني وطنه وملته وتفتح فريد من نوعه على حضارة عصره . . وهو في كل ذلك يتحدى بالنقل والعقل جهالات مجتمعه وخرافاته وجموده .

خامسا : ان الشيخ بيرم المتوفى منذ مائة عام، كان في عصره أكثر فهما لروح الاسلام وتجدد المسلمين وتقبلا لحقائق العصر والتطور من شيوخ تونس وفقهاء المسلمين وادعياء الزعامات الاسلامية اليوم. فقد اشارت بعض دراسات الندوة إلى بعض آرائه وفتاويه في عدد من القضايا والمشاكل الاجتماعية والاقتصادية بل وحتى السياسية والدينية التي عالجها في عصره ويسرها لمعاصريه . . في حين مازال معظم فقهاء الدين وزعماء الحركات الاسلامية يخوضون فيها بما

يشـــدنـــا إلى الـــوراء ويعـــطل نهضـــة شعـــوبهم وتـــطور بلادهم . . وهذا يبرهن على أن بيرم الخامس معاصر لنا أكثر منهم ويمدنا بسبب جديد لاحتفالنا به واحياء اثاره ونشر آرائه وفكره الاصلاحي .

ولا اعتقـــد أن لمذهبـــه الحنفي أثـــرا كبـــيرا في تفكـــيره الاصلاحي ومواقفه الشجاعة بقدر مالقوة عقله ونفاذ بصيرته وشفـافية فهمـه للاصلاح والتجديد لانقاذ المسلمين مما هم عليه من تراكم التخلف وركود العقل والحياة ! !.

ولست في حاجة إلى سوق الأمثلة ، فقد تناثرت شواهدها في بحوث الندوة ، وهي بين أيديكم وستكون عما قريب كتابا بين أيدي القراء .

وخلاصة القول :

ان اهم ما قدمته هذه الندوة : هو اكتشافها لفذ عظيم من أفذاذ قطرنا بل ومن أفذاذ المسلمين ـ كان منسيا مغمـــورا وتعريفنا التعريف العميق الموثق لرجل كان الجميع يعرفونه بالاسم والعموميات أكثر مما يعرفونه بالمضمون والعمق والوضوح .

ولست مبـالغا حين أعلن بان مكانة محمد بيرم الخامس الحقيقية قد ظهرت اليوم في إطارها الصحيح من خلال أعمال

هذه الندوة، وأن أثره الاصلاحي ومواقفه التجديدية الرائدة لم تنته مع زمانه أو بموته بل قد بعثت مرة أخرى لتبدأ دورها وتأثيرها في الأجيال الحاضرة والمقبلة. هذه الأجيال التي ستزداد اكتشافا له وتأثرا به واعجابا بشخصيته وريادته. *.

القيت في ختام الندوة العلمية المنعقدة في بيت الحكمة يومي 27 و 28/10/89 بمناسبة مرور مائة عام على وفاته.

كتاب مواد البيان
كتاب مطبوع منذ ست سنوات

مجلة المـورد، مجلة فريدة بين مجلاتـنـا العـربية المعنية بالتراث . وقد كانت تصلني بانتظام ثم انقطعت منذ ثلاث سنوات فأصبحت أحرص على اقتنائها من اكشاك الدوريات كلما عثرت على عدد جديد منها . . وقلما يتم لي ذلك .

ونـظرا لاهتمامي بالتراث العربي عامة وما يتصل بالأدب والتـاريخ منه بوجه خاص، فان مراجعتي للعدد الأول من المجلد السابع عشر (لعام 1988) قد تركزت على الأبواب المخصصـة للفهارس والنصوص المحققة . . والتي كان من بينهـا بل من ابرزها الحلقة الأولى من كتاب « مواد البيان » لعـلي بن خلف الكاتب الذي شرع في نشره الدكتور حاتم صالح الضامن معلنا انه ينشر لأول مرة ؟ ! والحال ان كتاب « مواد البيان » لعلي بن خلف الكاتب مطبوع مرتين :

الأولى : تمت منذ ست سنوات بتحقيق الدكتور حسين عبد اللطيف الأستاذ المشارك بكلية التربية في طرابلس وقد تولت نشره جامعة الفاتح بطرابلس الغرب عام 1982 ؟ !.

الثانية : تمت بالتصوير قام بها الأستاذ فؤاد سيزكين الذي يقوم منذ سنوات بطبع عيون التراث العربي والاسلامي بطريقة تصوير النسخ الفريدة أو الجيدة على حالها دون طباعة حديثة أو تحقيق أو مقابلة بين النسخ . وغايته من ذلك توفير النسخ للباحثين والمؤسسات العلمية . ومعلوم لدى الممارسين للتراث ان الأستاذ فؤاد سيزكين ينجز ذلك من خلال (معهد تاريخ العلوم العربية والاسلامية) الذي يتولى الاشراف عليه ، وقد جاء نشره لكتاب « مواد البيان » في المجلد (39) من (سلسلة ج ـ عيون التراث) . ونص في الصفحة الأولى من نشرته هذه بأنها (طبعة بالتصوير عن مخطوطه فاتح 4127 مكتبة السليمانية في استنبول » .

ومعلوم أيضا انها النسخة الوحيدة المعروفة حتى الآن . وهي مبتورة في آخرها حيث نقص منها البابان الأخيران . ولذلك اعتمدها ـ كما هي ـ المحقق الأول الدكتور حسين عبد اللطيف وأكمل بعض النقص من « صبح الأعشى » للقلقشندي الذي أورد من « مواد البيان » نصوصا كثيرة .

وهذا ما حملني على المبادرة بالاشارة إلى ذلك والتنويه بالمحقق الأسبق . . وبلفت نظر مجلتنا العزيزة علينا (المورد) حتى لا تتكرر عملية نشر نصوص تراثية سبق تحقيقها ونشرها . . إذ الأولى نشر ما لم ينشر من قبل .

ولا يفوتني ان أنوه أيضا بصديقي الأستاذ عبد الوهاب النجار (مدير معهد ثانوي بالقيروان) الذي أكد الملاحظات المذكورة وأطلعني على النسخة المطبوعة وصور الصفحات المرافقة منها. وهي تشمل تقديم المحقق والفهارس. ولنترك لمجلتنا أن تنشر منها ما تراه مناسبا.

والله من وراء القصد

كنا نظن المورد أسعد مجلة حين قدمت لقرائها - كبادرة نادرة - النص المحقق لكتاب « مواد البيان » . . . ولم نعلم - قبل ورود خطابكم - أن بين علمائنا العرب من قام بتحقيقه. فلنا عذرنا، وللدكتور حسين عبد اللطيف فضيلة السبق. وفوق كل ذي علم عليم. ويا حبذا لو جاد المحققون العرب على « المورد » بنسخة من آثارهم المحققة . . لنكون على بصيرة، ولنملك رشدا في هذ المضمار . . بيد أن هذا الملحظ الوجيه لن يمنع المجلة من مباركة الجهد الصادق الذي بذله الدكتور حاتم الضامن في تحقيق ذلك الأثر النفيس، مؤكدين انه إذ حققه كان مطمئنا إلى انه فارس الميدان، وأنه لا يعلم بما أنجز الدكتور عبد اللطيف، ومن هنا جدارته بالثناء ورجائي ان يتفضل أستاذنا الكريم أبو القاسم محمد كرو بقبول اعتزازنا بحرصه، وتقديرنا لتجشمه عناء التنبيه . . فله الشكر أولا وأخيرا. (1)

« رئيس التحرير »

---

(1) نشر بمجلة « المورد » العراقية : مجلد 18 ع 1 ـ 1989 .

الفهـرس

الصفحة

تم طبع هذا الكتاب على مطابع
دار المعارف للطباعة والنشر
بسوسة ـ الجمهورية إلتونسية

تصويـــب

وقعت أخطاء مطبعية يسيرة وواضحة، فيما يلي أهمها :

صفحة	سطر	خطأ	صوابه
10	2	ثقاة	ثقات
12	8	332	1332
13	4	حيات	حياته
23	1	1913	1912
31	5	الحمرءا	الحمراء
40	12	استثناء	باستثناء
40	13	لعوامل	العوامل
40	14	القاء	والقاء
40	15	بائل	قبائل
52	11	الذي	الذين
71	3	أضيفت	اضفيت
78	5	لؤلفه	لمؤلفه
152	4	الخراطق 27	الخراط، ق 27
159	7	اليوسفي	اليوسي
170	7	الثقاة	الثقات
182	7	أو	و
194	8	سرة	سره
234	6	دول	دولة
234	11	88	89

كتاب المعارف
يصدر عن دار المعارف

سلسلة كتب للجيب
يشترك في تأليفها أشهر الكتّاب
في الشرق والغرب.
السلسلة التي يستفيد منها
الشباب والشيوخ على السواء
بفضل ما تقدمه من
موضوعات متنوعة.
تصدر عن دار المعارف
للطباعة والنشر بسوسة/ تونس
في طباعة أنيقة تهدف إلى رفع
مستوى الكتاب العربي شكلا
ومضمونا.

الكتاب القادم
نهر الفقراء
صالح الحاجة

تم طبع خمسة آلاف نسخة من هذا الكتاب
تدمك : 5 _ 049 _ 16 _ 9973 _ ISBN
الثمن : 2.500 د. ت. أو ما يعادلها بالعملات الأخرى.